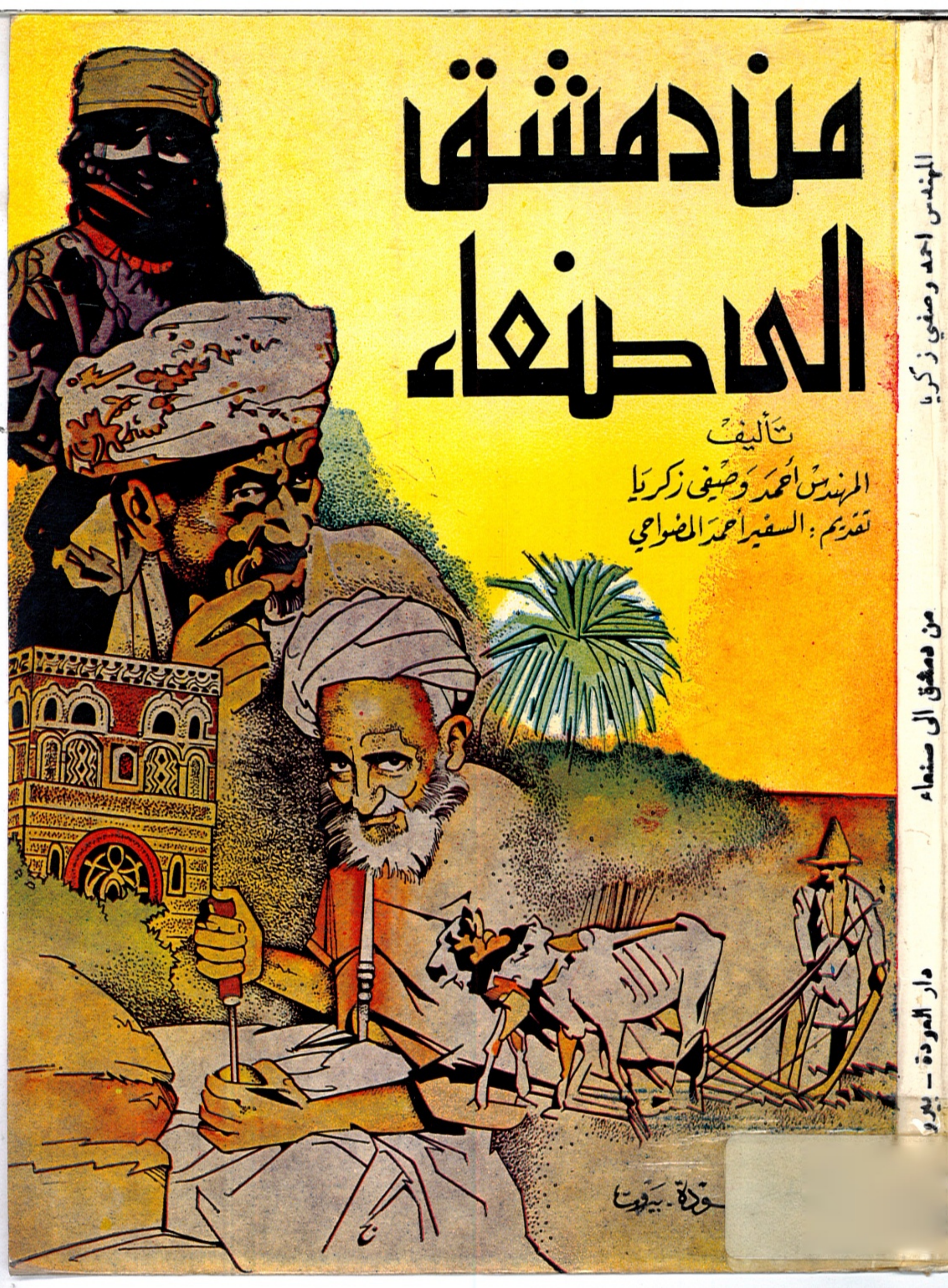

من دمشق
الى صنعاء
تأليف
المهندس أحمد وصفي زكريا
تقديم : السفير أحمد المضواحي
المهندس احمد وصفي زكريا
من دمشق الى صنعاء
دار العودة - بيرو
ودة - بيروت



من دمشق
الى صنعاء



صمّم الغلاف : الفنان نبيل قدوح

المهندس أحمد وصفي زكريا
تقديم: السفير أحمد المضواحي

من دمشق الى صنعاء

دار العودة - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٦/٩/١

كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر
تلفون : ٣١٠٨٤٠ - ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تلكس AWDA 23682 LE
ص . ب ١٤٦٢٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم السفير أحمد المضواحي

تعريف: -

أحمد وصفي زكريا مهندس زراعي من بلاد الشام أو بالأحرى من (سورية الكبرى) كما كانت عليه الحال وقتئذٍ.

ولد في دمشق الفيحاء عام ١٨٨٩ م وفيها أتم دراسته الابتدائية ثم الثانوية.

وفي استانبول (أو الآستانة كما كانت تدعى) عاصمة الامبراطورية العثمانية حينئذٍ تخرج من المدرسة الزراعية العليا عام ١٩١٢ وعمل بعد ذلك في العديد من مواقع العمل كمهندس زراعي في كل من سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

وفي عام ١٩٣٦ سافر إلى اليمن كمستشار زراعي لمدة ستة أشهر فقط.

لقد وقع الاختيار عليه لهذه المهمة من اللجنة العربية التي زارت صنعاء للمصالحة وإتمام الوفاق بين الإمام يحيى حميد الدين والملك

عبدالعزيز آل سعود بعد النزاع المسلح في منطقتي نجران وعسير وإبرام اتفاقية الطائف.

وكان الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين سابقاً والسيد هاشم الأتاسي الذي أصبح بعد ذلك رئيساً لجمهورية سورية من ضمن تلك اللجنة الموفدة والتي عانت الكثير من المشقة في وصولها إلى صنعاء على ظهور الخيل والبغال وصعود الجبال. ففي أول لقاء لتلك البعثة مع الإمام يحيى بادرهم بقوله أهلاً وسهلاً فكان جواب أحد الموفدين وهو السيد هاشم الأتاسي هكذا (أهلاً وجبلاً).

كانت دهشة هؤلاء القادمين العرب إلى اليمن كبيرة لأنهم وجدوا بلد أجدادهم في العربية السعيدة ومهد العروبة يتمتع باستقلال تام بينما جميع البلاد العربية تئن تحت كابوس الحماية والاستعمار والانتداب من مراكش غرباً إلى البصرة والكويت وخليج عُمان شرقاً مروراً بليبيا ومصر والسودان وبلاد الشام وأرض الرافدين. ولكنهم مع ذلك كانوا في حيرة وذهول ووجوم وحزن لأن اليمن لا يجني ثمار ذلك الإستقلال الذي بدأ يمارسه فعلاً منذ عام ١٩١١ بعد اتفاقية دعان الموقعة بين الإمام يحيى والقائد التركي عزت باشا، وبالأحرى بعد عام ١٩١٨ حين رحل الأتراك عن اليمن إلى غير رجعة. فقد كانت اليمن أول بلد عربي استقل بنفسه ونعم بحكم وطني بعد الحرب العالمية الأولى ولكنه خضع لوهم عجيب وفهم خاطىء وغريب أوحى به جهل الحكام وعزلتهم وانزواؤهم وأنانيتهم ونزعتهم الاستبدادية والتفرد بالحكم بدون مشاركة الشعب فيه وعدم السماح بقيام رأي عام، وبذلك أوهم الحاكم نفسه وأوهم معه شعبه بأن التطور مرهون بالارتباط بالغير وبالتبعية للأجانب سواء كانوا من العرب أم من غير العرب وساد الفهم

بأن الاستقلال معناه الانغلاق والانكفاء وسد جميع المنافذ، فأصبحت اليمن في عزلة عن العصر وصار الانفتاح على الغير خطيئة والتجديد شراً وكان شعار الحكم (الإيمان إيمان والحكمة يمانية وليس بالإمكان أحسن مما كان).

أما أذناب الحكم والمنتفعون به فقد جندوا أنفسهم لمحاربة كل جديد.

حاولت هذه اللجنة الوافدة تقديم النصح لولاة الأمور وطلبت اليهم استدعاء خبراء عرب للاستعانة بهم في تطوير البلاد فوافق الإمام يحيى بمشقة على وصول شخص واحد فقد للاستشارة في الأمور الزراعية شريطة أن يكون تحت الاختبار ولمدة ستة أشهر فقط.

وقد قبل الضيوف هذه الشروط على مضض واختاروا لهذه المهمة المهندس والعالم المثقف والأمين على حمل مثل هذه المهمة الشاقة بالشروط القاسية (أحمد وصفي زكريا).

تعرفت على هذا العالم الجليل الفاضل عام ١٩٦٣ بعد مرور عام واحد على قيام الثورة السبتمبرية وبعد كسر طوق العزلة الرهيب عن بلادنا وذلك عندما علمت بأنه ينشر عن اليمن مقالات في مجلة المعرفة السورية التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

كانت الطريقة الأقرب للاتصال به الهاتف فعمدت إلى الدليل حيث عثرت على الرقم وبذلك تم أول لقاء بيننا حيث أُقيمُ في دمشق وقد أصر عندما تحدثت إليه أن يحضر هو لزيارتي بعد أن عرف أنني من اليمن عبر الهاتف، وعلى الفور وبدون مهلة من الوقت وجدته مصراً على طلب العنوان وعندما سعدت بمقدمه بعد مرور وقت قصير على إتصالي

به بدأني بالتحية على الطريقة اليمنية كـدليل عـلى حبه وتعلقـه وشغفه بـاليمن رغم مرور وقت طـويل عـلى مغـادرتـه ورغم قصر المـدة التي أمضاها في تلك الربوع التي قال عنها بأنها من أفضل شهـور حياتـه في بقعة من أجمل بقاع الأرض رغم المعاناة والصعوبـات التي واجهته من السلطة هناك.

كان الرجل وهو يتحدث معي طلق المُحيا وقوراً في مظهـره وفي كلامه يناهز العقد السابع من عمره قوي الجسم حاضر الذهن ينافس الشباب في حيويتهم وقد وصل لزيارتي من منزله سيراً على الأقدام.

لم يسبق أن قابلت في حياتي مخلوقاً مغرماً باليمن مثل ذلك الرجل، فلقد كان حديثه عن العربية السعيدة حديث المحب الصادق والعاشق الولهان الذي أضاع محبوبته.

سـألته كم مكثت في اليمن؟ فـاسترسـل في رده وبمرارة وقـال: (مكثت في بلادكم ستة أشهر وحملت معي إليها مختلف أنـواع الغراس والبذور من سورية وفلسطين وصقلية ومصر على ظهر باخرة استأجرتها الهيئة العربية العليا لفلسطين خصيصاً بجهود المفتي الحاج أمين الحسيني واللجنة العربية التي رافقته إلى اليمن. وقـد جمعوا المـال لهذا الغـرض وكلفوني بالسفـر مع البـاخرة عـلى حسابهم لفـرط محبتهم لأهل اليمن ولأرض اليمن وتلبية للرغبة الفريدة التي انتقاها الإمام يحيى حميد الدين ولم يقبل بغيرها رغم إلحاح الوفد وعرضه السخي بتقديم ما تحتاج إليه البلاد من خبرة في الحدود المستطاعة.

وبعد أن حطت الباخرة رحلها في الحديدة تولت الجمال والبغال والحمير نقل ما كانت الباخرة قد حملته وتم التفريغ بوسائل بدائية وغير

سليمة. وفي الطريق من الحديدة إلى صنعاء تلفت معظم الأشجار والغراس المحمولة على ظهور الماشية قبل أن تصل إلى صنعاء العاصمة لصعوبة الطريق ووعورة الجبال. وفي صنعاء لم نجد الاهتمام المطلوب ولا الاستقبال المرتقب وقد بذلت قصارى جهدي في إنقاذ ما أمكن إنقاذه من تلك الحمولة وقمت بزرع بعضها في بساتين الإمام وبعض الأعيان في بير العزب والبعض منها في الروضة ووادي ظهر وما تبقى من ذلك في آنس وحمام علي كما قمت بإعداد فريق من الإخصائيين الزراعيين اليمنيين للعناية بما زرعناه في البساتين وفي الحقول خلال تلك الشهور الستة المحددة. وقد ألفتُ لهم كتاباً دراسياً إشتمل على المحاضرات والندوات والدروس التي كنت ألقيها عليهم في معظم الأيام بغرفة في مبنى الصنايع القريب من مكتب الأيتام بالعاصمة صنعاء.

وكنا أحياناً نحتاج إلى بعض علب الصفائح المطلوبة لبذر وغرس بعض النباتات أو البذور التي تحتاج بعض الأنواع من التربة. ومن أجل ذلك كان يتطلب الأمر بعض الزيارات نقوم بها إلى القرى القريبة أو المحيطة بالعاصمة صنعاء لجمع علب الصفائح التي تصل إلى اليمن معبأة بزيت الكيروسين وغيره وكان الموكب يتحرك من صنعاء وفي مقدمته سيوف الاسلام يسبقهم قارعو الطبول بمزاميرهم وأهازيجهم وأغانيهم.

وسكان القرى يستقبلون الموكب بشكل عفوي شبيه بموكبنا ويكون المشايخ والأعيان في الطليعة ويذبحون الكباش إكراماً للضيوف القادمين.

وبعد أن يتناول الجميع الطعام يأتي دور القات فينبرى القوم

المهمة التي قدمنـا من أجلها وقـد استطعت خـلال الستة الأشهـر التي أمضيتها في اليمن أن أجمع أربعين صفيحة فقط.

ولقد نجحت التجارب الزراعية التي قمنا بها حتى الفستق الحلبي كانت تجربة زراعته في اليمن ناجحة ولو كان لي الخيـار في البقاء مـدة أطول لكانت ثمرة ما بدأت به قد أينعت لخصوبة التربـة وصلاحيتهـا وجودة المناخ، فالأرض طيبة وأهلها كذلك. وعند انقضاء الشهور الستة وفي اليوم الأخير منها ذهبت إلى قصر الإمام مستأذناً بالسفر وقد سمح لي بمقابلته في ديوانه بـدار السعادة حيث كـان يجلس على الأرض متـربعاً وعلى رأسه طاقية بيضاء وبعد أن صـافحته استـأذنت بالـرحيل وكنت أتوقع منه على الأقل عبارة شكر ولكنه في ما يبدو كان سعيداً برحيلي إذ رد عليّ بعبارة ولم يزد عليها: (مع السلامة). هكذا حدثني الرجل عن رحلته وعن تجربته بلهجة عفوية ليس فيها شيء من التكلف، وهـذا الحديث الذي أوردته على لسان المرحوم أحمد وصفي زكريا في أول لقاء لي معه يمثل البعض فقط مما سمعته منه.

وبعد أن ودعته تواعدنا بأن أرد له زيارته الكريمة صبيحة اليـوم التالي. وفي الموعد المحدد استقبلني في داره الكائن في حي من أحياء مدينة دمشق يطلق عليه اسم (حي الرئيس) على مقربة من شارع الصالحيـة والمستشفى الايطالي وحي عـرنوص وكان يرتدي زياً يمنياً (زنة بيضاء) يعلوها على الصدر العطر المعتاد استعماله لدى سكان العاصمة صنعـاء ولمحت في رجليه حذاءً صارمياً صُنع صنعاء تأكيداً لفرط محبته لليمن. وكانت أحاديثه وآهاته حول اليمن وكذلك بعض مقتنياته التي حملها معه وقد بقي رحمه الله محتفظاً بهذه الذكريات الجميلة وغيرها طيلة أيام حياته منذ مغادرته اليمن عام ١٩٣٦ وإلى حين مماته عام ١٩٦٤ وقد كانت في

حوزته مكتبة ثمينة معظم موجوداتها من الكتب عن اليمن ومطبوعة بعدة لغات عربية وتركية وفرنسية وإنجليزية وألمانية.

واليوم وبعد مرور إثنين وعشرين عاماً على رحيله إلى جوار ربه رأيت أن من واجبي جمع شتات المقالات التي كتبها عن اليمن والتي نشرتها له مجلة المعرفة لتكون بين يدي القارئ الكريم في مجلد واحد وكان قد أخبرني رحمه الله قبل مماته بأنه أرسل ثلاثين نسخة من كل عدد من أعداد تلك المجلة التي فيها حديثه عن اليمن ومعها خطاب موجه منه إلى أول وزير للزراعة في اليمن بعد الثورة (الأخ المرحوم علي محمد عبده) وشكا لي من أنه لم يستلم جواباً على رسالته ولا يعرف إن كانت أعداد المجلة قد وصلت إلى وزارة الزراعة اليمنية أم لم تصل.

إن رد الجميل وجزاء الإحسان يحتمان علينا أن ندعو الله تعالى أن يتغمد المهندس أحمد وصفي زكريا برحمته وأن يجزل ثوابه عليه لقاء ما قدمه لقومه وعروبته وأمته وآمل أن يكون ما كتبه هذا العالم الجليل بما في ذلك ما جمعته من مقالاته في هذا الكتاب المتواضع محل اهتمام جيل الثورة وبناة المستقبل ورجال الغد المأمول وقادة الفكر في بلادنا عسى أن تكون آراؤه حافزة للهمم ومجددة للعزائم وبالأخص ما كتبه عن القات الذي تناوله بالحديث الصريح وبكل أمانة وإخلاص ومحبة وتجرد وصدق بعيداً عن التضليل أو المحاباة أو الخداع أو المجاملات الرخيصة، فالقات آفة إقتصادية وإنسانية وأسرية وعادة إجتماعية سيئة ينبغي الإقلاع عنها واقتلاع جذورها بكل شجاعة وبكل جرأة والله من وراء القصد نسأله تعالى أن يوفق القادة ويرشد الأمة ويحقق الآمال المرجوة.

بيروت في ٢ ذو القعدة /١٤٠٦ هـ
الموافق ١٩٨٦/٧/٨

أحمد المضواحي

غرائب اليمن كما شاهدتها[1]

ساقتني الأقدار في مطلع عام ١٩٣٦ إلى اليمن. وكان ذهابي إجابة لطلب ملك اليمن الأسبق الإمام يحيى كي أخدم زراعة بلاده وأنظر إلى ما يؤدي لصلاحها خلال ستة أشهر حددها. فذهبت وقمت في تلك المدة الضيقة بأوسع ما يمكن أن يؤتى في خدمة الزرع والغرس واستطعت أن أترك هناك آثاراً مشهودة من المحاصيل والأشجار المثمرة وغير المثمرة التي استجلبتها على عجل من مصر والشام وإيطاليا مما لم يكن لليمانيين عهد به.

وقد كنت خلال أعمالي الزراعية المذكورة في صنعاء وما حولها من الأقضية والنواحي أتنسم المعلومات الجغرافية والتاريخية والعمرانية وغيرها فحصلت على نبذ منها رأيت أن أنشر بعضها في هذه المجلة الغراء. وقد حفزني إلى ذلك كون اليمن لا يزال مجهولاً في جملته عندنا معشر العرب، لم تكتب كتابات كافية في اللغة العربية عن جغرافيته

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة المعرفة السورية التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي العدد الرابع السنة الثانية شهر حزيران يونيو عام ١٩٦٣ م.

الطبيعية والبشرية والعمرانية. بينما الأتراك العثمانيون في زمن وجودهم هناك ألف بعض قوادهم وأطبائهم عدة كتب ورسموا خرائط عسكرية، وقام قبلهم منذ مائتي سنة ولا يزال يقوم بعض المغامرين من رواد الإفرنج وخاصة الألمان والانكليز والإفرنسيين والإيطاليين والأميركان وجازفوا بأرواحهم وجاسوا خلال اليمن وألفوا ونشروا عنه كتباً عديدة في لغاتهم المختلفة. وكانوا يتهافتون خاصة على زيارة مدينة مأرب عاصمة السيدة بلقيس ملكة سبأ المذكورة قصتها مع النبي سليمان في الكتب المقدسة. وقد قتل بعض هؤلاء الرواد في طريقه إلى هذه المغامرة وراح ضحية البحث العلمي في تاريخ اليمن. والجدير بالذكر أن الرائد العربي الوحيد الذي كان السباق بين مثقفي العرب في بلوغ مأرب والكتابة عنها وعن سدها المشهور صاحب (رحلة في بلاد العربية السعيدة) هو مواطننا الدمشقي السيد نزيه المؤيد العظم في سنة ١٩٣٦ ولحقه بعد بضع سنوات بعض إخواننا المصريين الإخصائيين في الآثار ما زلنا ننتظر كتاباتهم. وآخر ما نشره المغامرون الأوربيون عن اليمن في ما علمته كتاب في الألمانية اسمه «اليمن من الباب الخلفي» لهلفريس ويقصد بالباب الخلفي حضرموت التي جاء منها إلى اليمن، وكتاب في الايطالية اسمه «هذه هي اليمن السعيدة» لسلفاتور آبونتي، وكتاب في الانكليزية اسمه «كنوز مدينة بلقيس» لوندل فيليبس الاميركي الذي جاء على رأس بعثة أثرية قوية واتفق مع الإمام أحمد ونقب في أطلال مأرب ثم اصطدم بمشاكل اضطرته إلى إيقاف العمل والنكوص.

ولم تقتصر مغامرة الأوربيين بالسفر إلى اليمن والجوس خلاله على رجالهم فحسب بل إن بعض نسائهم أيضاً ذهبن وعملن هناك ودرسن وبحثن. وبعد رجوعهن نشرن كتباً عما عملنه ولحظنه في اليمن منهن

طبيبـة المانيـة اسمها ايفـاهويـك لها كتـاب سمتـه (سنـوات في اليمن وحضرموت) والثانية طبيبة إفرنسية كلودي فايان لها كتاب سمته (كنت طبيبة في اليمن) وفي الكتابين طرائف ومعلومات جديرة بالقراءة. وكل هذه الكتب ترجمت أخيراً إلى العربية ونشرت. فعسى أن يقرأها مثقفونا ويدركوا مدى تقاعسهم عن الضرب في مجاهل الدنيا والدرس والبحث والتـأليف والنشر فيتحمسوا وبـالمغـامرين والمغـامـرات من الأوربيـين يتشبهوا.

هذا ولليمن لدينا نحن السوريين ذكريات مؤلمة وانطباعات رهيبة يعرفها المعمرون عندنا الذين أدركوا أوائل قرننا الحاضر وما قبله؛ فقد كانت بلاد اليمن تـوصف بأنها مقبـرة الجيش العثماني في ذلـك الحين (١٨٧٢ ـ ١٩١٨). ولكن هذا الجيش الذي كان يساق كرهاً إلى اليمن إن كان نصفه تركياً من ابناء الأناضول والروملي فنصفه الثاني كان عربياً من أبناء بلاد الشام كلها (سورية ولبنان وفلسطين)، فقد كانت تؤخذ من بلادنا جموع الأفراد الجديدة أفواجاً أفواجاً وعساكر الـرديف كتائب وراء كتائب. فلا يرجع منها إلى مسقط رأسه بعد خدمة أربع أو خمس سنوات إلا النصف أو الثلث. وندر من بين هؤلاء الراجعين من لم يكن عليلاً أو مشوهاً. كل ذلك من جراء الحروب والمعارك بين الدولة وأهل اليمن ومن الأمراض وتبدل المناخ بين حـر تهامـة وبرد الجبـال ونقص العناية وغيرها من الأسباب التي كانت في العهد العثماني الاستبـدادي (عهد السلطان عبدالحميد) تفتك بالجنود الذاهبين. فما من بلدة أو قرية في بلادنا العربية المذكورة إلا وتذكر اليمن بالأسى العميق. لأن لها هناك عشرات أو مئات من الشهـداء أو المنقطعـين أو المعلولين أو المشـوهين الذين راحوا ضحية ذلك العهد المشؤوم. يقابلهم مثل ذلـك العدد أو

أكثر من أبناء اليمن الذين كانوا يثورون ضد ظلم موظفي الدولة أو إجابة لدعوة الأئمة الذين كانوا يستفزونهم للوثوب على الدولة ومناجزتها القتال والعراك لكي يستردوا سلطانهم الروحي والزمني الذي سلبته الدولة منهم.

أجل، إن كثيراً من ضباطنا وقوادنا السوريين القدامى عملوا في اليمن أيام العهد العثماني وخاضوا معاركه وقاسوا شدائده. منهم من قتل ودفن هناك ومنهم من رجع بعد لأي معلولاً أو هزيلاً. أضف إلى هؤلاء العسكريين عدداً غير يسير من السوريين المدنيين رجال الإدارة أو القضاء الشرعي أو التعليم أو الطب أو الزراعة.

وبعد هذه المقدمة الوجيزة سأبدأ ببحثي الجغرافي فأقول:

حدود اليمن:

اليمن قطر واسع يقع في الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة العربية. وهو جبلي في أكثره سهلي في أقله. مستطيل الشكل، وحدوده من الشمال مقاطعة عسير العائدة إلى المملكة العربية السعودية ومن الشرق البراري الحاجزة بين اليمن وحضرموت ومن الجنوب المحميات التسع التابعة إلى مستعمرة عدن الانكليزية ومن الغرب البحر الأحمر.

المساحة والنفوس:

لم يتسن لأحد حتى الآن أن يحدد بلاد اليمن ويعرف مساحتها السطحية ويحصي نفوسها على الضبط. لأن هذه الأمور كانت وما برحت متعذرة الإجراء. لكن الباحثين من الأتراك والإفرنج يخمنون أن المساحة حوالى ٢٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع والنفوس ثلاثة ملايين أي أن

مساحة اليمن تقرب من مساحة بلاد الشام كلها ونفوس اليمن تقرب من نصف نفوس بلاد الشام كلها.

الوضع الطبغرافي:

يتألف القطر اليماني من ثلاثة أقسام. **الأول** الذي على ساحل البحر الأحمر. وهو سهل عرضه بين ٦٠ ـ ٧٠ كيلومتراً. وهو ذو براري منبسطة بينها رمال وكثبان وإقليم حار رطب. وهذا القسم يدعى (تهامة) وفيه من المدن الحديدة وهي ميناء اليمن الأكبر وباجل وزبيد وبيت الفقيه ومخا وغيرها. **والقسم الثاني** جبلي في الوسط وشرقي تهامة ويتدرج في الارتفاع عن سطح البحر إلى ١٠٠٠ و٢٠٠٠ وإلى ٣٥٠٠ متر في أعلى قمة منه. وهو ذو جبال وهضاب شامخة وأودية سحيقة وإقليم بارد أو معتدل نسبياً وهواء جاف جيد ويدعى (قسم الجبال) وفيه من المدن صنعاء وعمران وضوران وكوكبان وذمار ويريم وغيرها. **والقسم الثالث** صحراوي في الداخل وشرقي القسم الثاني وأوطأ منه وهو ذو براري واسعة تمعن في الامتداد شرقاً نحو حضرموت، كانت في عهود سبأ وحمير عامرة غناء فأصبحت بعدهم غامرة قفراء إلا قليلاً. ويدعى هذا القسم (الجوف) وهو بمثابة تهامة في الغرب. وإقليمه حار لكن هواءه جاف جيد. وفيه من المدن مأرب وشبوة والبيضاء وحريب وغيرها.

وكان اليمن في العهد العثماني منقسماً من حيث التقسيمات الإدارية إلى أربع ألوية (محافظة) هي لواء عسير الذي أخذه السعوديون عقيب الحرب العالمية الأولى. ولواء الحديدة في تهامة. ولواءا صنعاء وتعز في الجبال وفي كل من هذه الألوية الجسيمة عشرات الأقضية

والنواحي ومئات القرى والعزل (جمع عزلة وهي بمعنى الضيعة) وهناك كثير من القلاع والحصون الحربية الهائلة المنظر والعسيرة الصعود والمنال التي كانت في العهد العثماني تدور حولها، بل في كل مكان، المعارك الدامية والمحاصرات الشديدة.

قسم الجبال

أقتصر على وصف هذا القسم لأنه بيت القصيد في جغرافية اليمن. فالقطر اليماني يكاد أن يكون قطراً جبلياً، لأن جباله تغطي ما يزيد على ثلاثة أرباع مساحته العامة. وجبال اليمن هي تتمة سلسلة السراة القادمة من الشمال والممتدة من مكة المكرمة والطائف والمنتهية عند الأعضاد المشرفة على تهائم لحج وعدن. وكل هذه السلسلة أو جلها آهل بالسكان ومدنه وقراه متصل بعضها ببعض. وإذا سافر مسافر من الحجاز إلى عسير إلى صنعاء إلى عدن يكون دائماً بين زروع وحقول وأشجار ومراع وأودية قليلة المياه أو كثيرتها. وكافة المدن والقرى مبنية بالأحجار المنحوتة ودورها ذات طبقتين أو ثلاث أو أربع طبقات. بينما دور بلاد تهامة تبنى بالأجر أو بأغصان الأشجار وبطراز جميل في الجملة.

وظهر هذه السلسلة في اليمن مرتفع ارتفاعاً عظيماً. فما جاوز الألفين وبلغ الثلاثة آلاف متر سمي باليمن الأعلى وما انحط عن الألفين وأقل سمي باليمن الأسفل. واليمن الأعلى حول مدن صنعاء وذمار ويريم وأمثالها يؤلف نجداً متسعاً مستوياً مستطيل الشكل يمتد من الشمال إلى الجنوب. وفيه جبال منفردة شاهقة يتراوح علوها بين ٣٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ متر. وجبال اليمن من أروع جبال العالم مرأى وأصعبها مرقى وأكثرها تضاريس وتلعات وأودية وصعائد ومهابط

وأشدها تحطماً وتصدعاً وأفقرها بالماء والكلأ وأروعها باكفهرار المنظر ووحشته. وجبال سنير ولبنان في بلاد الشام وحتى جبال طوروس وآمانوس في الأناضول تعد متواضعة لطيفة يسيرة المنال إذا قيست بما في اليمن من الكؤودة والجهومة. وما راء كمن سمع. لا جرم أن من لم يشاهد جبال اليمن المكفهرة وشناخيبه المشمخرة وصخوره العظيمة النافرة وأوديته السحيقة وأكثرها حرج الجواز صعب المرور، قليل الماء والخضرة، أسود اللون متجهم المنظر، ومن لم يتسلق عقبات اليمن وشعابه الكأداء التي تقطع نياط القلوب حين تسلقها، ومن لم يتدحرج في منحدراته ذات الميل الشديد لا يحسب رأى جبالاً وأودية ولا قاسى تعباً ولا ردد لهثاً ولا ارتعدت فرائصه من خشية تدهور السيارة أو كبو الراحلة أو زلق القدم، وهذه حوادث ومآس كثيرة الوقوع هناك، لا سيما للجنود والموظفين القادمين حديثاً[1] ومبلغ التعب والإعياء في هذه الجبال يدركه المسافرون في طريق القوافل القديمة بين الحديدة وصنعاء المارة من قرية مناخة أو بين صنعاء وتعز أو حجة أو صعدة بل في أي طريق شئت. والارتفاع والانخفاض في هذه الطرق الوعثاء يختلفان إختلافاً فجائياً لا هوادة فيه ولا رفق. فبينما ترى نفسك قد صعدت

---

(١) ذهب المرحوم أحمد زكي باشا المصري الملقب بشيخ العروبة إلى اليمن سنة ١٩٢٩ لزيارة الإمام يحيى. وكان يرافقه السيد نبيه العظمة من رجالات سورية، واجتاز طريق القوافل القديمة من الحديدة إلى صنعاء ولقي عنتاً من ركوب البغال والصعود والهبوط في تلك الجبال والأودية الصعبة. ولما بلغ صنعاء ودخل على الإمام المذكور استقبله بكلمة (أهلاً وسهلاً) وكررها. فقال أحمد زكي باشا؛ كفى كفى يا مولاي وأنت تقول لي أهلاً وسهلاً. فاستغرب الإمام يحيى وأجابه ماذا نقول لك يا سيد. قال قل لي أهلاً وجبلاً. إذ ليس في بلادك سهول، وقد قاسيت من جبالك كل شدة. فضحك الإمام وقال أهلاً وجبلاً.

خلال أربع أو خمس ساعات إلى علو شاهق قدره ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ متر تهبط فوراً في ساعة أو ساعتين إلى ثلث أو نصف ذلك العلو، ثم تعود إلى الصعود، ثم تعود إلى الهبوط، وهكذا بمعنى أن منكب هذه السلسلة مؤلف من مرتفعات ومنخفضات تتموج موجاناً رهيباً ويأخذ بعضها برقاب بعض كأمواج البحر المتتالية المتلاطمة على مسافة عشرات الكيلو مترات مما يبعث التعب والرعب الزائدين للغريب القادم حديثاً. وقد كان الجيش العثماني يذوق الأمرين في اجتياز طرق اليمن الوعثاء وتسلق عقباته الكأداء ومحاربة قبائله الثائرة والمتحصنة وسط جبالها التي لا تقتحم ودورها الشبيهة بالحصون والأبراج التي لا تطال إلا بالمدافع الهدامة. ومن العسير أن يصف الكاتب هذه الجبال المنيعة ومسالكها وأماكن التجوال والصيال فيها ما لم يرها السامع بعينه ويلمس وعورتها بيده، وليس الخبر كالعيان.

(انظر خريطة طريق القوافل الملحقة بهذا المقال).

هذا ورغم اكفهرار هذه السلسلة وكؤودة عقباتها وشعابها فإن في مشاهدها عظمة وروعة تأخذان بمجامع القلوب. لا سيما حينما تتراكم أمواج الضباب وتتكاثف قطع السحاب. وترتج الآفاق من الرعود القواصف والبروق الخواطف. وهي ظواهر جوية كثيرة الحدوث هناك وبعد الزوال كل يوم. فحدث إذ ذاك ولا حرج عن طلعتها التي لا تمل وروعتها التي لا تجتوى، مما يحتاج وصفه وتبيين ألوانه وأشكاله إلى قريحة شاعر مفلق أو ريشة رسام مبدع.

الأودية:

أما أودية اليمن فهي أجل أماكنه قدراً ونفعاً، وهي أنزهها

منظراً وأزكاها تربة وأوفرها خيراً، ففيها المواقع الرغيدة والينابيع والجداول الدافقة والأشجار الظليلة والمحاصيل المغلالة والقرى والمزراع العامرة المنتشرة على دروبها انتشاراً متقارباً جميلاً تشبه قرى لبنان حينما تشرف عليها من ظهر البيدر مثلاً مع الفارق الكبير من حيث العمران ورقي السكان. ومياه هذه الأودية تحصل من الينابيع والعيون التي في قسم الجبال أو من الأمطار الهاطلة بشدة. وهي إما تتجه شرقاً لتغور في براري الجوف الشرقية كوادي ذنة الذاهب إلى مأرب أو غرباً لتصب في البحر الأحمر أو تغور في براري تهامة بعد أن تسقي مزارع تهامة وبساتينها. وأشهر هذه الأودية الغربية وادي مور ووادي سردد ووادي سهام ووادي رمع. وكان قدماء اليمانيين يعرفون قيمة مياه الأمطار الفائضة في هذه الأودية ويحسنون هندسة الري وبناء السدود وخزن تلك المياه وراءها لري الأرض المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث في بناء الخزانات، فتكاثرت وقتئذٍ السدود في اليمن بتكاثر الأودية حتى جاوزت العشرات. وكان أشهرها سد مأرب الشهير الذي خربه سيل العرم. وكل هذه السدود مندثر الآن لو قامت الحكومة اليمانية الحاضرة لإعادتها تدريجياً على مراحل لعاد قسم من عمران اليمن وزهوه اللذين أدمجهما الرومان في كلمة (العربية السعيدة).

المعادن والمناجم:

لقد ردد مؤلفو العرب وأطنبوا في معادن اليمن وأحجاره الكريمة فذكروا وجود الذهب والفضة والعقيق والزبرجد والحديد والنحاس والرصاص. وقيل إن بعض الخبراء الأوربيين أخبروا عن وجود معادن الكروم والفحم الحجري والبترول، وذلك في النماذج التي جلبت لهم

لأجل الفحص أو في الأماكن التي أوصلوهم إليها، لكن أحدا لم يحقق حتى الآن صفاء هذه المعادن وغنى مناجمها إن كانت مناجم دارة، ولا يزال اليمن بحاجة إلى خبراء في كل شيء ـ وخاصة في الجيولوجيا والمعادن ـ ليرودوه روداً علمياً ويحققوا الصفاء والغنى المذكورين. على أن الانكليز قد شموا رائحة البترول في أعماق أرض اليمن الشرقية وفرضوا أن عروق البترول ومجاريه تحت الأرض لا بد أن تكون قادمة من شمالي العراق إلى أواسط نجد ثم إلى فيافي الربع الخالي ومن هذه الفيافي إلى مشارق اليمن، فقاموا في السنين الأخيرة يتعدون على اليمن ويهاجمون مدنه وقراه بطائراتهم ودباباتهم بحجة تصحيح الحدود بين المحميات التابعة لمستعمرتهم في عدن وبين اليمن، كل ذلك لأجل البترول، وللبترول وحده.

الظواهر الجوية:

من غرائب الظواهر الجوية في اليمن أنها تختلف عما لدينا، فالفصول الأربعة على خلاف ما هي في بلاد الشام بحكم اختلاف درجة العرض وقرب اليمن إلى خط الاستواء. وهذه الفصول تسبق فصولنا بثلاثة أشهر. فشتاؤنا عندهم ربيع وربيعنا صيف وصيفنا خريف وخريفنا شتاء. وأبرد أيام السنة في صنعاء تكون في تشرين الأول والثاني وكانون الأول. وقد تهبط درجة الحرارة صباحاً إلى ١ ـ ٣ تحت الصفر بينما ترتفع في نفس النهار ظهراً إلى ٢٣، وبذلك يكون تفاوت كبير يؤثر في الصحة. وكثيراً ما يجمد الماء ويحصل الجليد الأبيض، وكثيراً ما يهطل البرد ذو الحب الضخم ويملأ السهل والجبل بفراش كثيف يستمر مكانه بضعة أيام. أما الثلج فلا يقع في اليمن إلا ما ندر على قمة جبل النبي شعيب التي علوها (٣٥٠٠) متر.

والضباب كثير الحدوث في قمم الجبال. وهو يحدث صيفاً وشتاءً في أغلب الأيام بعد الظهر وقد يدوم بضعة أيام بدون انقطاع. وأروع مسارح النظر في جبال اليمن وأوديته تلك التي يصادفها السائر في الطريق الصاعدة من الحديدة إلى صنعاء أو غيرها. فهو يشاهد أمواج الضباب عن كثب وقد تحيط به وتحول دون رؤيته منافذ الطريق فيخال نفسه غواص بحر زاخر، أو يشاهدها في الأودية السحيقة التي تحت أقدامه وهي غاشية التلعات والمنحدرات فيحسب أنه راكب طائرة يحلق فوق الغمام وفوق أعلى القمم الآخذ بعضها برقاب بعض. أما في تهامة فالحر شديد في الصيف، تبلغ درجته مثلاً ٣٩ أو ٤٠ وتبلغ درجة الرطوبة حدها الأعلى. ولهذا فالجو هناك خانق والتعرق متوال. والنوم على السطوح دائماً والمراوح التي تعلق بالسقف وتشد بالحبل وتتحرك لا تنقطع عن العمل عند الموسرين. لكنك إذا غادرت الحديدة وساحلها وسرت شرقاً وبدأت تصعد الجبال تشعر بالانتعاش من خفة الحرارة والرطوبة وتناقصهما تدريجياً ومن ازدياد الجفاف. إذ تبلغ درجته في صنعاء الحد الأقصى. وتهاطل المطر في اليمن عجيب. فالمطر يبدأ من آذار إلى آخر نيسان ويتوقف قليلاً في أيار وحزيران. ثم ينهمر بشدة خلال تموز وآب حتى منتصف أيلول. وفي هذه الأشهر بينما تكون السماء صافية تتلبد بعد الظهر بالسحب المكفهرة وإذا بالرعود تقصف والبروق تومض قصفاً ووميضاً شديدين ومتواليين يبعثان الروع والوجوم. وإذا بالأمطار تنهمر بشدة كأنها من أفواه القرب تظل على هذا المنوال ساعة أو ساعتين، ثم تنقطع فتهدأ ثورة السماء وتبقى الأرض وما فيها من الجبال والأودية ريانة فياضة بالسيول أو الغدران. وإذا أمسى المساء تتبدد الغيوم وتسطع النجوم وإذا أصبح الصباح تبزغ الشمس وتبدو السماء صاحية ضاحكة كأن لم يكن بالأمس

شيء. فلا يأتي الظهر إلا وتعود الغيوم والأمطار إلى ما فعلته أمس... وهكذا دواليك في كل يوم. ونباتات اليمن وحيواناته أيضاً عجيبة. تختلف كثيراً عن نظائرها في الشام من جراء تأثير الإقليم. فالنباتات والأثمار على غير اللون والحجم والطعم وكذا الحيوان. فالبقر مثلاً ذو سنام ضخم يتدلى فوق الكاهل، والخيل ذات مزاج عصبي شديد لا تسير إلا قفزاً ووثباً، والإبل رفيعة القوائم صغيرة الجثة لا تحمل إلا أثقالاً خفيفة، والغنم عديم الصوف أو قليله نحيل الخصر، والبشر أقرب إلى قصر القامة وصغر الهامة وهزل الجسم وشحوب اللون منه في بشر سائر الأقطار العربية. وعندهم كثير من القرود التي تتجول أسرابها كقطعان الغنم وتسطو على الزروع والغراس وتضرها.

وسائط النقل:

أما وسائط النقل فأحدثها الطيارات والسيارات. أما الطيارات فقد صارت منذ بضع سنوات تحلق في أجواء اليمن، وتحمل إليه الركاب. وأما السيارات فقد دخلت اليمن منذ ربع قرن وصارت تجري بين بعض المدن التهامية والجبلية التي لا يصعب وصولها إليها. أما في الصعبة الوصول فقد عبدوا لها طريقين فقط إحداهما بين الحديدة وصنعاء ،والثانية بين صنعاء وحجة. هذا ولقلة السيارات وطرقها الصالحة، فإن الاعتماد في اليمن كان وما برح على البغال والحمير والإبل التي تمشي في شعاب ومسالك حفرتها الأقدام بمرور الأيام.

الزراعة:

معيشة اليمانيين قائمة على الزرع والضرع. لكن زراعتهم إلى

حد الكفاف لا إلى حد التصدير والتجارة. وليس في اليمن من المحاصيل الزائدة والصالحة للتصدير سوى البن والجلود. وقد يصدرون قليلاً من التبغ والسمن والسيرج وأحجار العقيق، وعندهم أكثر أنواع الحبوب والقطاني والسمسم والتبغ والكمون واليانسون وقصب السكر والموز وبعض الأشجار المثمرة. ومن غرائب اليمن أن لكل من أنواع الزروع أصنافاً شتوية وصيفية عديدة ومواسم زرع وحصاد متوالية تكاد لا تنقطع في أكثر شهور السنة، والمسافر في نجود اليمن وأوديته كيفما اتجه وفي أي وقت اتجه يرى هنا حقولاً تبذر وهناك أخرى تسقى وتخدم وهناك أخرى تحصد وتدرس. وقد يكون كلها من نوع القمح أو الشعير أو الذرة ولكنه من أصناف عديدة تختلف في أيام بذرها ونموها وحصادها وكونها بعلية أو مسقية. وعندهم أكثر أنواع الحبوب والخضروات وأشجار الفاكهة المعروفة. وأجودها عندهم العنب، فإنه فاخر جداً. وبعض الأنواع نادر الوجود كالبرتقال والليمون وبعضها مفقود كالزيتون والصنوبر والفستق والإكيدنيا والكرز فإنهم يجهلونه. وقد جلبتها لهم وغرستها. على أن أبرك شجر مثمر في اليمن هو (البن) المنقطع النظير في العالم بجودته. لكن محصوله قليل لا يتجاوز عشرة آلاف طن. في حين أن في اليمن أماكن كثيرة صالحة لزراعته أهملت وخصصت لشجر (القات).

الصناعة:

في اليمن صناعات يدوية بسيطة تفي بحاجاتهم كالسكافة والخياطة والحدادة والنجارة والصياغة والنسيج والبناء. ولهم في صنعة البناء مهارة كلية يرفعون بها دوراً وقصوراً شاهقة بدون طين ولا

مؤنة. وكان لبعض مدن اليمن في القديم شهرة في نسج البرد اليمانية والأقمشة المحلية الكافية لهم. لكن مصنوعات الغرب ولا سيما مصنوعات اليابان الرخيصة التي غمرت أسواق العالم كله قضت عليها أو كادت.

وقد حاول بعض مواطنينا السوريين وفتحوا في إحدى مدن اليمن واسمها باجل معملاً للغزل والنسيج، لكنهم اضطروا إلى إغلاقه وتركه أمام العراقيل التي لقوها.

التجارة:

التجارة في اليمن ضعيفة لضعف قوة الشراء وفرط القناعة عند اليمانيين، وهم يستوردون حاجاتهم عن طريق عدن والحديدة. وصادراتهم قليلة وأخصها البن ثم الجلود والحبوب في سني وجودها. ومعظم التجارة في ميناءي عدن والحديدة بيد اليهود والهنود. وليس في اليمن بنوك ولا نقود خاصة، بل العمدة في أمر المبادلة على الريال النمساوي القديم الذي تاريخه سنة ١٧٨٠ وهو كثير التعرض لصعود السعر وهبوطه ومما يؤسف له أن الحالة الاقتصادية في اليمن رديئة جداً فالبطالة منتشرة والفقر مدقع والاضطرار إلى الهجرة والاغتراب شديد. يهاجر كل سنة من أهل اليمن الألوف المؤلفة إلى عدن والأريتريا وأفريقيا الشرقية والغربية وغيرها. فتجد اليمانيين في كل بقاع الأرض، يكدحون وراء العيش في اشقى الأعمال وأردأ الظروف الصحية، ويقدر عدد هؤلاء المهاجرين بربع مليون.

المباني في المدن والقرى:

ومن غرائب اليمن أن بلدانه وقراه لا بد أن تبنى فوق قمم

عالية أو وراء آكام مشرفة مستوفية شروط التحصن والدفاع. ذلك لأن اليمن قلما ذاق طعم الأمن وخلا من الحروب والفتن. وهم إذا بنوها في أرض منبسطة ولم يجدوا هذه الشروط أحاطوا البلدة أو القرية بسور من الطين أو الحجر وجعلوا للسور أبواباً محكمة وقووه بالأبراج المستديرة والشرفات والمرامي، ولا تزال أبواب هذه الأسوار في كل بلاد اليمن وحتى في العاصمة صنعاء رغم انتشار الأمن تغلق من بعد صلاة العشاء ويمتنع الدخول والخروج منها فيستلمها الجنود والحراس إلى مطلع الفجر كأنهم في حالة حرب أو إدارة عرفية مستمرة. والدور تبنى من الحجر أو من الآجر واللبن وهي جميلة المنظر من الخارج، وتكون ذات طبقات عديدة ربما بلغت الثلاث والأربع فتظهر عن بعد كناطحات السحاب.

الأديان:

الدين العام في اليمن هو الاسلام، ومسلموه أما إمامية زيدية من أتباع مذهب زيد بن علي بن الحسين يقولون بوجوب الإمامة وتعينها في أحد أبناء بيت النبوة الحائز على شروط خاصة، وإما سنة شافعية من أتباع المذهب الشافعي الذين لا يقولون بحصر الإمامة في آل البيت. وجميع سكان الجبال زيديون وجميع سكان تهامة شافعيون. والسيطرة بيد الزيدية الذين كان منهم الأئمة الحاكمون في اليمن. وثمة في قضاء حراز قليل من الإسماعيلية أتباع سلطان البهرة في الهند وهم غير الإسماعيلية الذين يؤلهون آغاخان. وكان اليهود يؤلفون عشر السكان وينتشرون في كل مدن اليمن وقراه ويسكنون لوحدهم في أحياء منعزلة ولهم زي خاص ومعاملة خاصة. وكان أكثر الصناعات النفيسة وبعض الخسيسة في يدهم، لكنهم الآن رحلوا إلى

فلسطين وانقطع دابرهم من اليمن.

الطبقات:

منَ غرائب اليمن أن اليمانيين ما زالوا منقسمين كما كانوا في عهود أجدادهم إلى طبقات عدة هم السادة والفقهاء والمشايخ والعقال (جمع عاقل) وعيال السوق أي الباعة والصناع في المدن والقبليون في القرى. ولا تطلق كلمة السيد في اليمن إلا على المنتسبين إلى آل بيت النبوة ولا يجوز استعمالها لغيرهم، والسادة في اليمن كثيرون تجدهم أينما ذهبت، وهم القابضون على زمام الأمور وكل العمالات والوظائف الدارة هي لهم مهما قلت معرفتهم وكفاءتهم.

والقبليون في اليمن هم أهل الحرث والزرع ومستقرون في قراهم، وهم من أشجع الناس وأصبرهم على تحمل المشاق ومكاره العيش وأبرعهم في حروب العصابات في الجبال والصعائد والمهابط وما أكثرها وأوحشها في اليمن! وهم في الحروب ينطلقون ويقفزون من المرتفعات والمنحدرات كالفهود. فلا تشعر كيف نبتوا من بين الجنادل والصخور، يمشون نصف عراة ويدهنون أبدانهم بالنيلة الزرقاء وينفشون شعورهم التي لا تعرف المقص فيبدون بمنظر مخيف، وهم يسابقون الرواحل في الجري ويحسنون الكر والفر والكمون والتحصن وتسديد الضرب بالبنادق والطعن بخناجرهم الطويلة العريضة المعقوفة التي يسمونها (جنبية)، وقد صاولوا في زمنهم الجيش العثماني وأرهقوه طوال عشرات السنين رغم شهرته بالبسالة وتفوقه عليهم بالسلاح والعتاد. وهم لا يكبح جماحهم إلا المدافع والقنابل، وفي زماننا الطائرات ذات المقذوفات الفتاكة.

الألقاب:

ومن غرائب اليمن أيضاً أن الألقاب الفخمة التي كانت تستعمل في عصور إنحطاط دول الإسلام ما زال لها رواج لا يحيدون عنها في تراسلهم وتخاطبهم. فكل سيد هو علامة وكل موظف كبير هو قاضي، وكل من كان اسمه أحمد هو صفي الإسلام وينادونه بالصفي ومن كان اسمه محمداً هو عز الإسلام وينادونه بالعزي. وكل ابن للإمام يلقب بسيف الإسلام وكل إمام هو أمير المؤمنين وهكذا.

الملابس والأزياء:

ومن غرائب اليمن أن أزياء أهله في المدن وإن كانت عربية، لكنها لا تشبه ما في بقية الأقطار العربية. فالرجال في المدن يلبسون القنابيز الفضفاضة المسدودة من الأمام ويجعلون أكمامها عريضة واسعة طويلة إذا تدلت تصل إلى الأرض وهم يشبكون هذه الأكمام وراء ظهورهم فتظهر كالحدبة. وهم لا بد أن يتمنطقوا بمنطقة عريضة مرصعة عند مترفيهم بالفضة أو الذهب يضعون في وسطها سكيناً عريضة يدعونها (جنبية). ولا بد أن يجعلوا على أكتافهم قطعة مستطيلة من نسيج الصوف أو القطن يدعونها (لحفة) ويستعملونها لوقاية الرأس أيضاً. أما القبليون سكان القرى فرجالهم نصف عراة يكتفون بمئزر (فوطة) تستر نصفهم وهم لا بد أن يصبغوا هذه الثياب والفوط وأبدانهم أيضاً بالنيلة الزرقاء ويعتقدون أنها تنفع وللبرد تدفع. وأما نساؤهم فيشبهن بأزيائهن وسفورهن التام نساء القرى في بقية الأقطار العربية. أما اللواتي في المدن فحجابهن شديد، يتسترن بملاءات تشبه ما للنساء في قرى غوطة دمشق. والأثاث والرياش في

بيوتهم لا يزال على الطراز القديم فهم يفرشون الحصر والطراريح والسجاجيد الممتدة على الأرض ويتكئون على المساند وهم لا يعرفون استعمال الكراسي والأرائك ولا القعود وراء المناضد حتى في دواوين الحكومة أيضاً.

المعارف:

المعارف في اليمن مقتصرة كما قلت في فاتحة حديثي على الكتاتيب الأهلية والمدارس الابتدائية الحكومية والمدارس الشرعية. ومن غرائب اليمن أن الأمية قليلة فيه، أي أن القارئين والكاتبين في مدنه وحتى عند القبليين في قراه كثيرون جداً وبدرجة محمودة تدل على ذكاء اليمانيين واستعدادهم. وهناك المدارس الشرعية المجاورية لأكثر الجوامع والمساجد ينشأ منها قضاتهم وفقهاؤهم وأدباؤهم. وهؤلاء أيضاً كثر وبدرجة محمودة. وإن كان كل ذلك من طراز الأزهر قبل قرن ومحروماً من العلوم العصرية واللغات الأجنبية، أما المدارس الحديثة من متوسطات وثانويات وجامعات بالمعنى الذي نعرفه فهي مفقودة. وهم لو سدوا هذا النقص بإرسال البعثات من شبابهم إلى مصر أو العراق أو الشام لهان الأمر وحصل عندهم رجال مثقفون يملأون الثغرات الملحوظة في دوائرهم ومرافق حياتهم. لكنهم لم يفعلوا ذلك إلا منذ سنين قليلة وبعد إلحاح الناصحين من ذوي الغيرة القومية في الأقطار العربية. فبعثوا بعدد من هؤلاء منهم من أكمل تحصيله ومنهم من أرجعوه قبل أن ينتهي خوفاً من أن يتشرب مبادىء تقدمية تحررية تقلق بال أولياء الأمر هناك، ولهذا السبب لم ينشأ في اليمن من أبنائه حتى الآن طبيب ولا مهندس طرق ولا مهندس زراعي أو صناعي ولا حقوقي ولا سياسي يفهم الدبلوماسية العالمية

ولا ضابط ركن مكمل للعولم العسكرية ولا طيار ولا ترجمان يعرف لغة أجنبية يخاطب الأجانب الذين يفدون عليهم ولا أي صاحب اختصاص في فن من الفنون الحديثة. وهم إذا احتاجوا أو أوحي إليهم بأن يحتاجوا أحداً من هؤلاء يستعيرونه من إحدى البلاد العربية أو الأجنبية. وهؤلاء مهما قعدوا لا تطول إقامتهم أكثر من نصف سنة أو سنة يعودون وهم يرددون الحوقلة والحسبلة. وفي زمن وجودي هناك كان في اليمن كله جريدة صغيرة واحدة اسمها «الايمان» تصدر في الشهر مرة، خاصة بنشر الشؤون الرسمية وقصائد المدح والتهنئة لمن تزوج أو سافر أو عاد من سيوف الإسلام أبناء البيت المالك. ولم يكن هناك إلا القليل النادر ممن تأتيه الصحف العربية المصرية أو السورية، لذلك فإن اليمانيين كانوا في عهد الأئمة في راحة من سماع ما يجري في العالم من الأحداث المقلقة والتطورات المزعجة، وفي راحة عن رؤية السينما والقعود في المقاهي والملاهي واستعمال آلات العزف والطرب لأن كل ذلك كان ممنوعاً ومفقوداً وقتئذٍ.

طراز الحكم والادارة في اليمن:

كان أوتوقـراطياً (إستبـدادياً) وثيـوقراطيـاً (روحانيـاً) على نهج العصور الغابرة المندرجة في كتب التاريخ.

فـالإمام الملقب بـأمير المؤمنـين المتوكـل عـلى الله كـان يجمـع السلطتين الروحية والزمنية في يده. فسلطته الروحية شديدة إلى أبعد حد بحكم شروط الإمامة ومقتضياتها في المذهب الزيدي، فهو إمـام معصوم مفترض الطاعة مهما عمل، كما أن سلطته الزمنية تشمل كل كبيرة وصغيرة بحكم المركزية الشديدة التي يهتم بها وتصل حدودهـا إلى أقصى ناحية وأصغر مدرسة وثكنة. فهو الكل في الكل في جميع

الشؤون، هذا على رغم وجود ما يشبه الوزارات والنظارات في يد بعض أبنائه، أو بعض السادة من أقاربه، لكن الحل الأخير في كل شاردة وواردة يعود إليه حتماً. وكان إذا مرض الإمام تعطلت كل الأعمال الحكومية ومصالح المراجعين من أجانب ووطنيين حتى يشفى الإمام ويستأنف العمل. والألوية والأقضية والنواحي يتولاها موظفون يدعون (عمالاً) يسيرون على نهج صاحب الجلالة في الحكم والإشراف المطلقين. أما القضاء ففي يد قضاة الشرع. وأحكام هؤلاء مبرمة في الغالب. منها أن القاتل يقتل والسارق تقطع يده. والأشقياء العابثون بالأمن والمشتغلون بالسياسة السلبية تقطع رؤوسهم والسارقون تقطع أيديهم وأرجلهم، وأكثر المسجونين والمعتقلين بصفة رهائن يرسفون بالقيود الحديدية مدى الحياة.

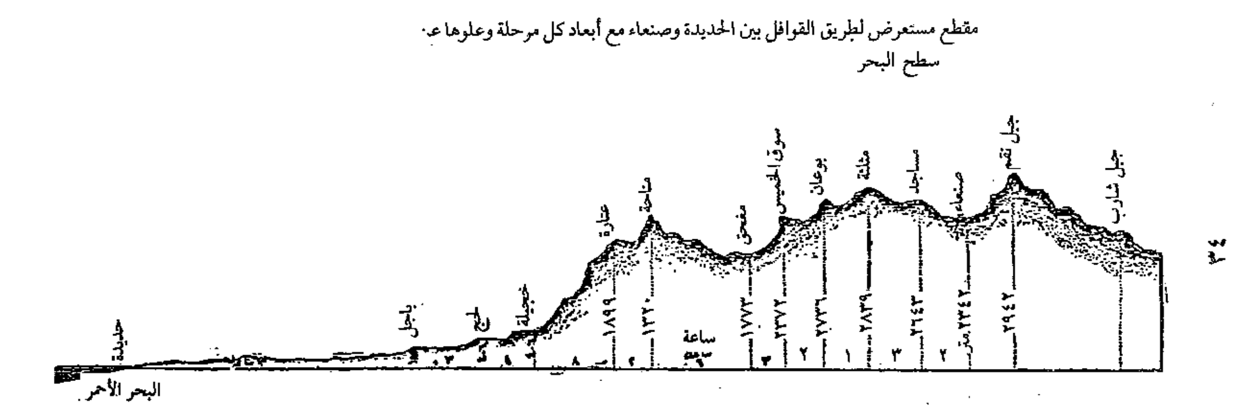
أما الجيش في اليمن فقد كان مؤلفاً من جنود مرتزقة عليه إعتماد الإمام في توطيد الأمن الداخلي وقمع فتن القبائل، وهو أشبه بالدرك. وراتب الجندي خمسة ريالات في الشهر له ولأسرته، ولثمن القات الذي لا بد منه. وهو إذا ذهب بحملة عسكرية فطعامه على أهل القرى التي يمر بها. وإذا أطلق الرصاص، عليه أن يجمع القراطيس ويعيدها إلى المستودع. وإذا مرض أو جرح فأجرة مداواته تقطع من راتبه. هذا إلى أن ضباط هذا الجيش وقواده وضباطه وسلاحه وعتاده من مخلفات الجيش العثماني القديمة. وليس في الجيش اليماني إحالة على التقاعد عند بلوغ السن، فكل جندي أو ضابط يجب أن يخدم من المهد إلى اللحد. وقد كنت أرى أثناء العرض الجد والابن والحفيد يمشون في حظيرة واحدة وينشدون بملء أشداقهم (الزامل) أي النشيد الوطني اليماني الذي يمجد الإمام ويهدد من تحدثه

نفسه بمعصية الإمام. بقي في ذاكرتي منه قولهم:

يا من يخالف أمر مولانا ويعصيه
لا بد من يوم تراه
لا بد من يوم يشيب الطفل فيه
والطير يرسي في السماء... الخ

وبعد، هذا غيض من فيض مما يمكن أن يكتب عن غرائب اليمن. نكتفي به الآن ونرجو لليمن أن ينفض غبار الماضي الآسن الذي كان ملتحفاً به وأن يخطو خطوات سريعة مسددة في ركب الحضارة الحديثة التي تأخر عنها كثيراً ليلحق بأشقائه بقية الأقطار العربية ويكون من دعائم وحدتها الشاملة ومنعتها الكاملة إن شاء الله.

مقطع مستعرض لطريق القوافل بين الحديدة وصنعاء مع أبعاد كل مرحلة وعلوها ع.



لمحة من تاريخ اليمن
قبل الاسلام وبعده[1]

- ٢ -

ليس من شك في أن اليمن كان في ما مضى ذا حظ عظيم من التمدن والعمران ووفرة الثروة وفراهة السكان، لكن اليمن لم يبلغ في قدم تاريخه شأو بقية الأقطار العربية التي كانت في شمالي الجزيرة العربية، لأن أحداثه المعروفة لا تبدأ إلا من منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، بينما أحداث تلك الأقطار تبدأ من الألف الثالث والرابع، ولا يوجد لليمن حتى قبل ذلك المنتصف ذكر في أي سفر أو رقيم أو نقش مما يستند عليه في تحقيق ماضي الأمم والبلاد، ولا يعرف حتى الآن ما كان عليه جو اليمن وأرضه وقطينه خلال الألفين الثالث والرابع المذكورين، حينما كانت تندفع موجات الساميين من قلب جزيرة العرب نحو شمالها، فتنتشر على ضفاف الدجلة والفرات والعاصي والأردن والنيل وتؤسس حضارات ودولاً عرفت بالأكاديين والسومريين والآشوريين والبابليين والفرعونيين. وكذلك لا يعرف ما إذا كان اليمن يمكن عده من بقاع (قلب جزيرة العرب) التي كانت تدفع تلك

(١) نشرت في مجلة المعرفة السورية العدد السادس، السنة الثانية، في شهر آب / أغسطس عام ١٩٦٣ م.

الموجات أم أن هذا القلب كان منحصراً في بلاد نجد والحجاز فحسب. وهل أخرج اليمن قسماً من تلك الموجات، أم لم يحتج قطينه للخروج والهجرة لتوفر أسباب الرزق والرفه لديهم أكثر من بلاد نجد والحجاز القاحلة في الغالب. ثم من كان هذا القطين، ومن أي الأقوام يتألف، وما حال هذه الأقوام من المعيشة والمنعة، ومن أين أتوا في الأصل، ثم من هم قوم عاد الذين ذكروا في القرآن الكريم وفي كتب التاريخ العربية، أكانوا من أولئك اليمانيين الذين نتساءل عنهم. وكيف استطاع قوم عاد أن يعيشوا في أحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر. بينما هذه الأحقاف هي الآن مفاوز معطشة وبراري موحشة، ثم كيف قضى هؤلاء عهودهم وكيف انقرضوا، وهل الآثار القيمة في بعض أنحاء حضرموت واليمن التي تنسب إليهم هي لهم أم هي في الغالب للأقوام الذين جاؤوا بعدهم ممن سيأتيك ذكرهم؟. كل ذلك ما برح في طي الحدس والافتراض ينتظر تقدم البحث والتنقيب في مجاهل تلك البلاد النائية. أما الذي عرف من تاريخ اليمن القديم منذ القرن الرابع عشر أو الخامس عشر قبل الميلاد حتى القرن السابع الذي ظهر فيه الإسلام أي خلال واحد أو إثنين وعشرين قرناً، هو أنه تأسست فيه دول أو دويلات عديدة ثبت تقدمها في ميادين العمران والحضارة أكثر من ثبوته في الفتح والسياسة، فقد بحث مؤرخو اليونان والرومان مثل (ديودور وهيرودوت واسترابون) عن مدن اليمن ودوله ومسالكه التجارية وحالاته الاجتماعية التي كانت في عهدهم. ويتحدث مؤرخو العرب كالطبري والمسعودي وابن الأثير وابن قتيبة وابن خلدون عن دوله، ويحث جغرافيو العرب في محافد اليمن وآثاره وأسداده وحصونه وقصوره. وكان المبرز في هذا المضمار هو الفيلسوف اليماني أبو الحسن

الهمداني المتوفى في القرن الرابع الهجري صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب»[1] والإكليل[2] وفي الحق إن أحداً من كتاب العرب من قبل ومن بعد لم يبلغ شأو الهمداني في دقة البحث وحسن الوصف لبلاد العرب عامة واليمن خاصة، فقد سبق رحمه الله في هذا المضمار علماء الغرب ممن أتى بعده بعشرة قرون. ويلي الهمداني ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان الذي أحاط بجل أنحاء المعمور في عهده، وجعل لليمن من معجمه حظاً موفوراً يستحق الإعجاب. ويلي ياقوت في جغرافية اليمن فضلاً عن تاريخه نشوان بن سعيد الحميري اليماني صاحب كتاب مختصر شمس العلوم ودواء العرب من الكلوم المطبوع في ليدن سنة ١٩١٦.

وقد تأيد قسم كبير مما ذكره هؤلاء المؤرخون والجغرافيون بفضل مكتشفات علماء الآثار من الإفرنج الذين خاطروا بأنفسهم وتمكنوا من الوصول إلى بعض المدن والأماكن التاريخية في مشارق اليمن، وأخصها مأرب عاصمة السبئيين ومعين عاصمة المعينيين. بيد أن مدناً وأماكن عديدة أخرى في أحقاف الرمل التي تقدم ذكرها ـ ولا سيما في برية الجوف الممتدة من غربي تلك الأحقاف إلى سفوح جبال اليمن الشرقية، وفيها العاصمتان المذكورتان ـ كانت في عهد الأئمة البائد ممتنعة على علماء الآثار لا يستطيعون الوصول إليها ليبحثوا وينقبوا في أطلالها ونقوشها، وهي أمثال شبوة وروث والعبر ووبار وهرم وبيحان وبراقش والبيضاء والسوداء وغيرها. وبعض هذه المدن والأماكن إما مطمور تحت الرمال السافية، أو خاو على عروشه تفعل فيه الأعاصير والهوام، أو على خرابه يسكن بين أطلاله أعراب كانوا لا يدينون

(١) طبع ليدن سنة ١٨٨٤.

(٢) طبع الجزء الثامن منه في بغداد سنة ١٩٣١ بتحقيق الأب أنستاس الكرملي.

لسلطة ما حتى ولا لحكومة صنعاء السابقة، ولا يدعون غريباً أياً كان أن يصل إلى مواطنهم هذه حذراً من أن يغتصب لهم الكنوز التي يتخيلون وجودها تحت الأنقاض، كما ثبت ذلك للسائح الألماني هيلفريس في شبوة وبيحان حينما مر بهما مغامراً من حضرموت إلى اليمن. وقد قال جغرافيو العرب الذين تقدمت اسماؤهم عن هذه المدن إنها أسماء مدن ومواضع ومخاليف بالجوف من اليمن كانت لملوك حمير وفيها حصون وقصور ومبان عجيبة (كذا) وقال نشوان الحميري عن وبار ما نصه «وبار اسم أرض كانت لعاد في مشارق اليمن وهي اليوم مفازة لا يسلكها أحد لانقطاع الماء، ويوجد بها قصور، وقد كستها الريح بالرمل، ويقال إنها كانت لأهل الرس وهم أمة من ولد قحطان، والله أعلم» هذا ولا يسع المتأمل في تاريخ اليمن القديم إلا أن يعجب من وجود تلك المدن والمواضع والمخاليف بين الرمال والمفاوز، وكيف أنها تحتوي على مبان وقصور وصفت بكلمة (عجيبة)، وأيد ذلك الأثريون الذين بلغوها ورأوا بعضها، وقد توصلت بعد التأمل إلى أن تلك المدن والمواضع في إبان ازدهارها كانت وسط إقليم ظواهره الجوية مواتية من حيث اعتدال الهواء ووفور الأمطار وخصب التربة وسهولة العل والنهل من الصهاريج والآبار المترعة بمياه الأمطار الوافية، ومن السيول الدافقة في كثرة أو قلة من جبال اليمن وأنحائه الشرقية، وأن هذه المواتاة ظلت دائمة منذ تكون القطر اليماني في الأطوار الجيولوجية إلى فجر التاريخ والقرون القديمة التي تلته. أضف إلى ذلك أن تلك المدن والمواضع كانت على قارعة مسالك تجارية عظيمة كما كانت تدمر وسط بادية الشام. واستنتجت بعد ذلك أنه قد حدث في أرض اليمن وجباله البركانية هزات عنيفة

طمست كل أو جل ينابيعه التي كانت تدفع بالغدران السارحة نحو براري الجوف وأحقاف الرمل، وحدث في سمائه ما غير ظواهرها الجوية وجعل كميات الأمطار تتناقص قرناً بعد قرن إلى حد أصبحت لا تكفي للعل والنهل، وجاءت عوامل خارجية أيضاً قضت بتغير المسالك التجارية من البر إلى البحر، وحرمت سكان اليمن من أكبر موارد رزقهم، فانحط شأن المدن والمواضع المذكورة وهجرها سكانها على التوالي وصارت بمرور الأحقاب وانقطاع الأسباب وسط رمال وقفار تشكو العطش والجدب والخواء، بعد أن كانت مغمورة بالري والخصب والعمران، ولا غرو فالبلاد تشقى وتسعد كالعباد.

إن هذا الاستنتاج الذي وصلت إليه تؤيده الأدلة الكثيرة البارزة للعيان في كل القطر اليماني، وقد سبق أن قلت في (حديث اليمن) المنشور في مجلة المقتطف (جزء تشرين أول سنة ١٩٣٧ ص ٣١٤): على أن مقادير المطر في العصر الأخير صارت أقل مما كانت عليه في العصور الخوالي، يظهر ذلك للمتأمل في كثرة الغيول والأودية الجافة أو الجارية وعمقها المتناقص، ولم يسجل ميزان المطر في مرصد صنعاء الجوي سنة ١٩٣٥ أكثر من ٣٠٠ ميليمتر، وهذا المجموع العائد إلى سنة واحدة وإن لم يكن كافياً للاعتداد به، لكن بقية السنين لا تكون فيها الزيادة على ما يظهر أكثر من نصف أو ثلثي المجموع المذكور، وهو يعد قليلاً على كل حال إذا قيس بجفاف إقليم اليمن وجفاف صخوره وأتربته، ولا يزال شيوخ صنعاء يذكرون بحسرة اتراع الغيول بالماء، وقد كانت مثلاً قبل ٥٠ ـ ٦٠ عاماً تروي في شمالها مساحات واسعة في قرى شعوب والروضة والجراف فأصبح الآن بعضها جافاً كل الجفاف، وبعضها تناقص إلى ثلث أو نصف

مقداره السابق، فصارت تلك المساحات غامرة بعد أن كانت زاهرة ناضرة. ثم قلت في هامش ذلك المقال: أيد الهمداني ظني بتأثير الزلازل في تقليل مياه اليمن إذ قال في كتابه الإكليل (ج ٨ ص ٨٨) عند كلامه عن غيل وادي ضهر: (وكان الغيل في الجاهلية على ضعف ما هو عليه اليوم حتى وقعت في اليمن زلازل قطعت بعض ماءاته).

وقد زادني إيقاناً بما ذكرت ما قرأته نقلاً عن كتاب (الربع الخالي) لمؤلفه (السيد عبدالله فيلبي)[1] فقد قرر هذا المؤلف (بعد أن اخترق ذلك الربع الموحش وشاهد أدلة جيولوجية كافية للاستدلال) أن البقاع الغربية في الربع الخالي كانت حافلة بالخصب والعشب في عصور سحيقة تعود إلى ما قبل التاريخ، وأن أودية الأفلاج ومقرن والدواسر ونجران وتثليث... الخ التي تهبط من جبال عسير نحو الربع الخالي المذكور كانت تصب في بقاعه الواسعة، وأنه لما جفت هذه الأنهار وأصبحت أودية كما هي اليوم غاض الماء وجف الهواء فأقحلت تلك البقاع وأقفرت، فإن صح هذا الرأي عن أودية عسير والربع الخالي فهو أشد صحة عن أودية اليمن وأحقاف الرمل وبراري الجوف المجاورة له في جنوبه. وأن هذه الأودية والأحقاف والبراري لما كانت ذات أرض وسماء سمحتين لبثت صالحة لارتواء البشر وعيشهم فقطنها أقوام كثيرون وتعاوروها، فمنهم من قضى ومضى قبل أن يعرفه التاريخ كما جرى بقوم عاد وأهل الرس، ومنهم من أبقى له آثاراً وأخباراً موثوقاً بها شرع التاريخ يدونها منذ القرن الخامس عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد فحسب.

---

(١) قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة.

ويظهر أن العطش والجدب اللذين حصلا من تطور العوامل الجيولوجية وتغير الظواهر الجوية بدأا بأحقاف الرمل وسادا فيه، أما المدن والمواضع التي كانت في غربي تلك الأحقاف أي في برية الجوف الواقعة في سفح جبال اليمن، فقد ظلت تلك العوامل والظواهر مواتية على قلة حملت سكانها الذين رأوا ما حل بأهل الأحقاف على بناء الأسداد فوق الأودية الهابطة من الجبال المذكورة، وأتقنوا هذا العمل وأكثروا منه بعد في بقية أنحاء اليمن، وكان أشهرها وأعظمها (سد العرم) الذي كان يروي مدينة مأرب وما حولها، وكان مبنياً على وادي ذنة الجامع لمعظم مياه الجبال المذكورة[1] وقد حفظ لأهل مأرب خصب تربتهم واخضرار جنتيهم اللتين ذكرهما القرآن الكريم. وكان الخصب والاخضرار المذكوران يدومان كلما دامت عنايتهم بترميم سد العرم وغيره وحفظها من الصدع، إلى أن ضعف حالهم في القرن السادس الميلادي، فعجزوا عن الترميم فخرب سد العرم وخربت مأرب وجناتها بسبب ذلك ولأسباب أخرى سيأتي ذكرها، واندرس العمران من براري الجوف حتى لم يبق في يومنا إلا أثر ضئيل، وانحصر في أنحاء اليمن الغربية على النحو والمبلغ اللذين سيأتي ذكرهما.

وليس الأمر منحصراً في براري الجوف بل إن في أرجاء اليمن وحضرموت كثيراً من الأطلال الأثرية الدالة على عمران وإزدهار عريقين في التقدم، وكنت أشاهد أثناء تجوالي في مدن اليمن سنة ١٩٣٦ على جدران الدور والمساجد وأبوابها عتبات وأحجاراً منقوشة

---

(١) إقرأ وصف هذا السد في رحلة السيد نزيه المؤيد العظم وفي كلمة مأرب في دائرة المعارف الإسلامية بقلم كروهمان.

بالخط السبئي الحميري (المعروف بالمسند) تنتظر من يحل رموزها. ولا يزال الأهلون ينبشون بين الأطلال والمواضع القديمة عاديات ثمينة ونقوشاً مكتوبة بالخط المذكور ينقلونها إلى (عدن) ويبيعونها من غواة هذه السلع وتجارها من الإنكليز وغيرهم. وقد جمعت حكومة عدن بعض تلك الآثار وحفظتها في متحف صغير معروض للزوار، بينما حكومة صنعاء السابقة لم تقم بما يماثل هذا العمل الهام، ويرجى أن تلتفت حكومة الثورة اليمانية إلى هذه الآثار القيمة قبل أن يقضى عليها بالمرة وقد يكون في أقلها حجماً وشأناً ما يميط اللثام عما برح العلماء يتحسرون على معرفته من تاريخ اليمن خاصة والعرب عامة.

اليمن قبل الإسلام وبعده

ليس تاريخ اليمن القديم وغموض أخباره مما شغل بال المتأخرين فحسب، بل قديماً اضطرب مؤرخو العرب في أمره وحاروا في اختلاف قصصه واختلاط الحقائق بالخرافة في أخباره، فقال أحدهم ابن حزم (بعد أن ذكر ملوك التبابعة): وفي أنسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة. وقال ابن خلدون: إختلفت أحوالهم واتفقت اسماء كثير من ملوكهم ووقع اللبس في نقل أيامهم ودولهم. فلنأت بما صح منها متحرياً جهد الاستطاعة.. إلخ. إلا أن هؤلاء المؤرخين رحمهم الله، رغم ترددهم وحيطتهم هذه، لم تخل منقولاتهم من الاضطراب الذي شكوا منه، منه أنهم درجوا القصائد والأبيات المنسوبة إلى بعض ملوك حمير في وصف فتوحهم وانتصاراتهم الموهومة أو المبالغ بها جداً، وهي منظومة باللغة العربية العدنانية، بينما كانوا يعرفون أن لغة أولئك الملوك حميرية تختلف عن العدنانية إلى حد بعيد، كما دل على ذلك كلمة قديمة قالها أبو عمرو بن العلاء

وهي: ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا. وكما دلت أيضاً الكتّابات السبئية الحميرية المكتشفة حديثاً، وهل ينظم المرء بغير لسانه، ومن أين لأحدهم الذي أسموه تبعاً أبا كرب أن يقول:

لست بالتبع اليماني إن لم
تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤدي ربيعة الخرج قسرا
لم يعقها عوائق العواق

فأين اليمن من سواد العراق حتى تصل خيله وتركض فيه، ناهيك بالصين والمغرب اللذين زعموا أن غيره من التبابعة بلغهما وافتتحهما، بل من أين له أن يعمر ثلثمئة وعشرين سنة.

ومن أقوالهم: إن أول أجيال العرب من بني سام، انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام، فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين. فهذا القول بعيد عن رأي المحققين المتأخرين من جهة ويقرب من جهة أخرى، فبعده في أن المتأخرين يرون أن بني سام نشأوا في قلب جزيرة العرب، ولما ضاقت بهم هذه الجزيرة هجروها وتدفقوا نحو أطراف العراق والشام ومصر، وتركوا عيش البداوة وتحضروا. وقربه في أن المتأخرين يرون أيضاً أن بعض بني سام وأسموهم المعينيين ـ وسيأتي حديثهم ـ جلوا بعد حين من العراق لما زاحمهم الاريون وجاءوا إلى اليمن موطن آبائهم الأولين وأنشأوا فيه أول دولة عرفها التاريخ فيه، أي أن هؤلاء انتقلوا من حاضرة إلى حاضرة لا من حاضرة إلى بادية.

وفي ما يخص اليمن قالوا ما خلاصته: إن دولاً عديدة تعاورت الحكم في اليمن من أقدم الأزمان، منها العادية والقحطانية والحميرية، فقوم عاد من بني سام الذين تقدم القول إنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيه بنو حام، وأن مواطنهم الأولى كانت بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان وحضرموت والشحر، وأنهم اتصل ملكهم وعظم طغيانهم وعتوهم، ولما بادوا خلفهم قوم لم يذكروا من أين أتوا، بل أسموهم (القحطانية) وحسبوهم أجداد عرب اليمن، ولقبوهم بالعرب العاربة، كما لقبوا قوم عاد بالعرب البائدة، وقالوا إن القحطانيين اقتبسوا العربية من العادبيين، وأن من القحطانيين سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان باني مدينة مأرب وسدها (كذا) وأنه لما مات خلفه ابنه حمير مؤسس الدولة الحميرية، واختلفوا في أسماء ملوك حمير وعصورهم وعدوا من مشهوريهم الحارث الرائش، وأبرهة ذا المنار، وأفريقش، وبلقيس التي قالوا إنها وفدت على سليمان ملك بني اسرائيل، وأسعد أبا كرب، وذا نواس، وكان الكبار من ملوك حمير يلقبون بالتبابعة (جمع تبع)، ومتوسطوهم بالأقيال (جمع قيل) وصغارهم بالأذواء (جمع ذو) وبالغ بعض أولئك المؤرخين في وصف فتوح هؤلاء واتساع سلطانهم ووصولهم إلى حدود الصين شرقاً وبلاد البربر غرباً، ونحلوهم قصائد وأشعاراً مطولة في الإشادة بتلك الفتوح التي جلها موضوع أو مبالغ به جداً، وقصارى ذلك كما يظهر من كلام ثقات المؤرخين أن الفتوح الحربية لم تتجاوز جزيرة العرب وربما اليمن وحضرموت وعمان فحسب. أما التوسع التجاري فما من شك في بلوغهم به أطراف الجزيرة ونفوذ قوافلهم إلى العراق والشام ومصر ـ كما سوف نذكره ـ ولكن هذا لا يعد توسعاً

حربياً أو سياسياً كما أرادته تلك النقول الموضوعة والقصص المنحولة. وسيظهر من كلام أولئك الثقات أيضاً أن ملوك حمير كانوا ملوكاً منفردين، كل منهم في مخلافه لا يتجاوزه، والمخلاف كالقضاء في بلاد الشام والعراق الآن، مؤلف من عدة محافد، والمحفد كالناحية مجموعة من القرى المتجاورة. كان الأقيال يتنازعون ويغير بعضهم على بعض، وقد ينبغ منهم من يمتد نفوذه أكثر من غيره، فيدعى ملكاً أو تبعاً ويؤسس مملكة يتوارثها أعقابه، فتتألف منهم دولة يطول بقاؤها أو يقصر، ويتسع سلطانها أو يضيق، حسب الأحوال، شأن كل قطر تكثر فيه ملوك الطوائف. وبالغ المؤرخون العرب أيضاً في حكاية تصدع سد مأرب وفي نسبتهم هجرة القحطانيين وتشتتهم إلى ذلك التصدع دون غيره، بينما يذهب المحققون الآن إلى أن تصدع ذلك السد حدث قبيل ظهور الإسلام بأقل من قرن، والهجر والتشتت حدثا قبل ذلك بعدة قرون، وفي فترات متعاقبة بحكم تحول الظواهر الجوية وتبدل المسالك التجارية كما قدمنا. والتصدع إنما كان نتيجة الضعف والانحطاط اللذين طرأا على الحميريين من هجوم الأحباش واستبدادهم.

ثم إن نسابي العرب يرجعون جميع قبائل اليمن إلى حمير وكهلان ولدي سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان جد عرب اليمن، وأن من حمير كان التبابعة وقضاعة، وأن قضاعة تفرعت إلى قبائل بلي وكلب وتنوخ وجهينة وبهرا وسليح ونهد وعذرة، وأن من كهلان كان الأزد وطي ومدحج وهمدان وكندة ومراد وأنمار، وعدوا من فروع الأزد الغساسنة والأوس والخزرج وخزاعة ودوس وغيرهم، ومن فروع مدحج خولان وبني سعد العشيرة والنخع وعنس، وعدوا من قبائل

اليمن أعقاب سبأ أيضاً، وهم لخم وجذام وبنو الأشعر وعامله، ويذكرون أن هذه القبائل القحطانية ـ ما عدا التبابعة وأشياعهم الذين بقوا في اليمن ـ هي التي هاجرت إلى شمالي جزيرة العرب على أثر خراب سد العرم وقطنت وأسس بعضها دولاً كالغساسنة في الشام، والمناذرة اللخميين في العراق فظلت مئات السنين حتى ظهر الإسلام، بينما المؤرخ جرجي زيدان في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام يبدي أسباباً وجيهة للارتياب في صحة انتساب هذه القبائل المهاجرة إلى اليمن.

وقد قسم مؤرخو العرب أدوار اليمن قبل الإسلام إلى ثلاثة: الأول من البدء إلى عهد تبع أبي كرب والثاني من عهد أبي كرب إلى ذي نواس، والثالث من عهد ذي نواس إلى ظهور الإسلام. وفي الدور الثالث جاء الأحباش حينما تهود ذو نواس الحميري واضطهد نصارى نجران، ففتحوا اليمن ودوخوه واستقروا فيه وعاثوا، وبلغت بهم الجرأة أن زحفوا إلى مكة لهدم الكعبة فأخفقوا ورجعوا، ولما ضاق ذرع اليمانيين بجور الأحباش، استنصروا الفرس فأنجدوهم بجيش أخرج الأحباش من اليمن فتولاه نواب الفرس، الذين كان منهم «باذان» الذي عاصر البعثة النبوية وأسلم وانتشر الإسلام على أثره في اليمن.

أما علماء الإفرنج الذين ذكرنا أسماء بعضهم وقلنا إنهم عنوا باليمن زيارة وتنقيباً وبحثاً، ثم الذين حذوا حذو علماء الإفرنج من الشرقيين في تحقيق التاريخ وتطبيقه على الآثار والنقوش، نخص بالذكر منهم جرجي زيدان مؤلف (تاريخ العرب قبل الإسلام) فقد جاءت مكتشفاتهم وبحوثهم عن اليمن أجلى بياناً لتاريخه مما ذكرته

تواريخ العرب وأكثر إعلاء لشأن سكانه القدماء. وقد قدمنا أن أبعد ما وصل إليه علم هؤلاء من تاريخ اليمن، لا يتعدى حدود القرن الرابع عشر أو الخامس عشر قبل الميلاد. وفي تلك الحقبة المتأخرة من عصور التاريخ الأولى هبط اليمن قوم اسمهم (المعينيون) واستعمروا الطرف الشرقي منه المعروف بالجوف وقد قدمنا أن أول عمران اليمن حدث في براري هذا الطرف حيث الآن رمال سافية وفلوات خالية إلا من بعض الأعراب الهمج. وهؤلاء المعينيون لم يعرفهم مؤرخو العرب ولا ذكروهم، وإنما ذكروا في بعض أشعارهم مدينة (معين) التي كانت عاصمة المعينيين كما ذكروا مدناً أخرى خربة أسموها براقش والبيضاء والسوداء.

ومعرفة الإفرنج بالمعينيين حصلت من بعض أخبار التوراة وتواريخ اليونان ومن النقوش الكتابية التي اكتشفها العالم الأثري هاليفي سنة ١٨٦٩ م في مدينة معين المذكورة، وهي تقع إلى الشمال الشرقي من مأرب وكانت خربة مجهولة. وأصل المعينيين غامض، لم يعرف كيف نبتوا في اليمن ومن أين أتوا. وقد ذهب المؤرخ جرجي زيدان إلى أن أصلهم من عمالقة العراق الذين كان لهم دولة عظيمة في بابل دامت بين القرن الرابع والعشرين والحادي والعشرين قبل الميلاد. ومن أشهر ملوكهم حمورابي، وأنه لما زالت شوكة العرب الساميين بزوال تلك الدولة على أثر مزاحمة الآريين، نزح بعض أهلها فراراً من أولئك المزاحمين، وكان المعينيون من جملة القبائل التي نزحت، وإذ كانت قد تعودت الحضارة ولم يعد يطيب لها التجول في البادية التمست مقراً تقر فيه فنزلت اليمن وتوطنت الجوف. وقد استدل المؤرخ المذكور على قوله من تشابه اسماء الملوك في الأمتين

البابلية والمعينية كأب يدع واليفع وحصن صديق ونبع كرب، ومن اشتراكهما بأسماء المعبودات وأسس الاعتقادات وطرق العبادة ومن الأحوال الاجتماعية والسياسية، ويوافق ذهابه هذا ما ذكره ابن خلدون من أن أول أجيال العرب من بني سام انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام. إلا أنه في حالة قبول هذا الذهاب الذي تغلب عليه الصحة، تبقى معرفة السبب في اختيار المعينيين الجوف دون غيره من بقاع اليمن الشرقية والغربية، ألعله كان إذ ذاك أرضاً خصبة وسماء سمحة أكثر من غيره، ومعرفة ما كانت عليه بقية بقاع اليمن المذكورة أكانت خالية خاوية وهو ما لا نظنه، ومعرفة حالة الجوف المذكور، ومن كان يسكنه، وكيف لم يترك هؤلاء السكان أثراً ولا خبراً، وكيف استظهر عليهم المعينيون وحلوا محلهم؟ هذه غوامض نضيفها إلى ما قدمناه من المسائل التي ما برحت في حاجة للتحقيق والجلاء.

قالوا بعد أن حل المعينيون في الجوف اليماني واستعمروه أسسوا فيه دولة ذات عز وسلطان وشادوا المحافد والقصور على مثل ما عرفوا في بابل، وتعاطوا التجارة بمختلف السلع، واقتبسوا الأبجدية الفينيقية، ودونوا لغتهم بحرف خاص بهم ما زال يتنوع بتوالي الأجيال حتى صار إلى الحرف المسند الذي كتبت به اللغة الحميرية بعد، وبلغ عدد ملوكهم الذين عثر النقابون على أسمائهم في أنقاض معين ستة وعشرين ملكاً. وأنهم كانوا يعرفون باسم مزواد. وأن نفوذ المعينيين التجاري امتد إلى شواطىء البحر المتوسط وخليج فارس، وأن مسالكهم التجارية كانت ممتدة في أواسط جزيرة العرب، وأن محطاتهم ومستعمراتهم انتشرت حتى شمالي الحجاز بدليل النقوش

المعينية التي عثروا عليها في العلا شمالي المدينة المنورة وفي الصفا شرقي حوران وغيرهما.

وفي العصور القديمة كانت مسالك التجارة بين الهند وافريقية وبين آشور وفينيقية ومصر، منحصرة في موانيء الجزيرة العربية كعدن وقانا (حصن الغراب) وظفار ومسقط، وفي الطرق البرية الممتدة في صحارى الجزيرة المذكورة. فكانت السفن تأتي من الهند وإفريقية حاملة السلع المختلفة وفي مقدمتها خشب الأبنوس وريش النعام والذهب والعاج والأفاويه والطيوب وأخصها البخور والمر اللذان كان لهما سوق نافقة في المعابد والعقاقير والأصباغ والحرير والمنسوجات، فيلتقفها التجار المعينيون ويسيرون بها وسط الصحارى المذكورة متنقلين من محطة إلى أخرى. وقد كانوا أقاموا هذه المحطات وحصنوها لسلامة قوافلهم حتى يصلوا إلى العراق أو الشام أو مصر، وهي بلاد كانت إذ ذاك رافلة في الحضارة والترف يتهافت أغنياؤها على شراء تلك السلع، ثم ترجع تلك القوافل مثقلة بمنتوجات الشرق الأدنى كالحبوب والزيوت والخمور والمصنوعات المختلفة تبعث بها في سفن المحيط الهندي إلى بلاد الشرق الأقصى، وقد ظلت القوافل أهم وسائل النقل مدة قرون طويلة.

وقد أثرى المعينيون من هذه التجارة والنقل ثروة عظيمة وازدهرت حضارتهم وبنوا عدة مدن في الجوف كان المؤرخ اليوناني استرابون ذكرها باسم ميناي وبثيل وكارنا وناسكوس. وقد اكتشف هاليفي هذه المدن وقرأ أسماءها عليها بالحرف المسند. وهي التي قلنا إن العرب كانوا يعرفونها ويذكرونها في أشعارهم وينسبها جغرافيوهم إلى الحميريين ويسمون الأولى معين والثانية براقش والثالثة السوداء

والرابعة البيضاء. قال الهمداني في كتابه الإكليل (ج ٨ ص ١٢٤ طبعة بغداد): ومن محافد اليمن براقش ومعين وهما بأسفل جوف أرحب في أصل جبل هيلان وهما متقابلان. فمعين خراب خاوية على عروشها. وأما براقش فقائمة، وأسماء أهلها مكتوبة بالحرف المسند، يسكنها بنو الأوبر من بلحرث بن كعب. . إلخ وفيها يقول علقمة ذو جدن:

وقد أسسوا براقش حين أسسوا
ببلقعة ومنبسط أنيق
وحلوا من معين حين حلوا
لعزهم لدى الفج العميق

وقال الهمداني أيضاً: وبالجوف سوى براقش ومعين والبيضاء والسوداء مآثر بأن فيها آثار عجيبة وقصور أجر خربة بين الجوف ومأرب، يعدون الناس منها الذهب القبوري ودنانيرهم ودراهمهم عليها صور. ونذكر تصديقاً لكلام الهمداني أن في متاحف أوروبا اليوم الكثير من النقود الأثرية المنقولة من اليمن وعليها صور الملوك وأسماؤهم وأسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند، والرموز سياسية أو إجتماعية أو دينية. ونذكر أيضاً أن أخبار المعينيين التي ما برحت قليلة وغامضة تكاد تشبه ما يقال في القرآن الكريم عن قوم عاد ذوي العبث والبطش والجبروت وأصحاب الأنعام والبنين والبنات والعيون. وقد قدمنا أن مؤرخي العرب جعلوا منشأهم من بابل وحسبوا مساكنهم بين اليمن وعمان وحضرموت. فهل المعينيون هم العاديون، ذلك ما يتبادر إلى الذهن ويحتاج للتأكد.

هذا وقد ظل المعينيون ينعمون برغد وسؤدد طائلين نحو سبعة

قرون إلى أن غلبهم السبئيون وأبادوهم وخلفوهم في السيادة والتجارة وذلك حول سنة ٦٥٠ قبل الميلاد. والدولة السبئية هي المعروفة لدى العرب بالقحطانية والحميرية والعرب العاربة. لأن سبأ في عرف العرب من أعقاب قحطان. قيل إن السبئين جاءوا إلى اليمن من الحبشة في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد، فأقاموا بجوار المعينيين وخالطوهم واقتبسوا لغتهم وديانتهم وحضارتهم وزاحموهم في امتلاك بعض أنحاء اليمن وجعلوا عاصمتهم صرواح. تشهد بذلك الكتابات المعينية التي اكتشفت وفيها ذكر لوجود السبئين في اليمن، وأن بعض ملوك المعينيين مثل (خالي كارينا صادوق) و(يحثيل ريام) كانا في الزمن الذي كان فيه ملوك سبئيون. والمظنون أن هذا كان بين ٧٠٠ و٦٠٠ سنة قبل الميلاد. ويقال إنه جاء في كتابة معينية ما يفيد أن السبئين وقبيلة أخرى اسمها خولان، كانوا يشنون الغارات على الطريق المؤدية من نجران إلى معان في جنوبي الشام. وقد أشار كتاب أيوب في التوراة إلى هذه الغارات.

وما زال السبئيون يزدادون بسطاً في الثروة والقوة حتى ظهروا على المعينيين لأسباب مجهولة لعلها للوهن الذي قد يكون أصابهم كما يصيب عادة الأقوام التي تسترسل في النعيم والترف بمرور الأجيال بينما خصومهم في إبان نهضتهم وفتوتهم، وما أن وطد السبئيون نفوذهم حتى أنشأوا دولة كبيرة كانت كسالفتها دولة تجارة وقوافل وزراعة وجعلوا عاصمتهم (مأرب) وزينوها بالقصور والدور والشوارع والأعمدة والهياكل الجميلة التي لا تزال أطلالها تدهش الزائرين بروعتها وجمال هندستها ويظهر أن السبئين لما رأوا الظواهر الجوية في براري الجوف مالت إلى التحول وأن الأنهار كانت تذهب سدى بنوا

سد العرم في مأرب وسدوداً أخرى في كثير من أنحاء اليمن وحضرموت واتقنوا فن الري وتوزيع المياه فتقدمت الزراعة وأثروا منها كما كانوا أثروا من التجارة والنقل. وقد حملتهم تلك الثروة على العناية بالعمران فبنوا الحصون والمباني العظيمة والهياكل الشامخة في اليمن وحضرموت وما بينها وتفننوا بزخرفها وتزيينها بالنقوش والتماثيل والأعمدة وشادوا حولها الأسوار المنيعة وفرشوها بالديباج وأواني الذهب والفضة. وكان سد مأرب من أعظم أعمال العمران في اليمن، شاهده في القرن الرابع الهجري الجغرافي اليماني ابو الحسن الهمداني وذكره في كتابه الإكليل (ج٨) إلا أنه ظل غير معروف أو موصوف بدقة إلى سنة ١٨٤٣ م لما زاره الأثري آرنو ورسم خريطته وأفاض في وصفه. كما زاره هاليفي وغلازر في سنتي ١٨٦٩ و١٨٩٥ والسيد نزيه المؤيد الدمشقي في سنة ١١٣٦ وأفاض في وصفه أيضاً في رحلته[١]. وهذا السد جدار ضخم بنوه في باب وادي ذنة بين جبلي يلق لتجتمع سيول جبال اليمن الشرقية وراءه في فصل الأمطار وتنصرف من ثم لري السهول الممتدة حول مأرب. وفي هذه السهول كانت الجنتان الواقعتان عن يمين مأرب وشمالها كما جاء في القرآن الكريم في سورة سبأ. وكانت هذه السهول والجنان تشبه غوطة دمشق أو أكثر على ما يظهر وتفيض بالغلال والثمار. وقد عثر الأثريون المذكورون في أنقاض هذا السد على نقوش كتابية بالحرف المسند استدلوا منها على أن بناته هم سمعهلي ينوف وابنه يثعمر بدأا به

(١) والبحاثة الاميركي ويندل فيليبس الذي أجرى حفريات كبيرة في مأرب ولم يدعه موظفو الإمام أحمد من إنجازها واضطروه للهرب هو وأفراد بعثته على ما تحدث به في مؤلفه (كنوز مدينة بلقيس) أو (قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن).

وأكمله خلفاؤهما.

وفي تلك الحقبة شرع البطالسة خلفاء الاسكندر المكدوني في مصر يبنون السفن ويمخرون في البحر الأحمر وينقلون السلع بين موانىء الشرق والغرب. إلا أن هذه المنافسة لم تؤثر تأثيراً يذكر في تجار السبئيين وقوافلهم. فقد ظلوا يمدون جميع الهياكل المصرية والفينيقية بالبخور والطيوب وغيرهما. وكما اشتهر السبئيون بالإقدام والنشاط في أعمال التجارة والزراعة اشتهروا بالبسالة في الحروب، حتى أنهم صدوا حملة القائد الروماني آليوس غالوس وأرجعوه عن أسوار مأرب. وقد كان قصدها طمعاً بما بلغه عن ثروتها وترف أهلها. حدث ذلك في سنة ٢٤ ق. م وهذه الحملة الرومانية وإن أخفقت لكنها عرفت الرومانيين ببلاد العرب وجعلت مؤرخيهم يذكرونها ويذكرون اليمن خاصة ويصفونها بالعربية السعيدة.

ويذكر أن الدولة السبئية قضت دورين في حياتها. الأول لما كانت عاصمتها في صرواح، وهي الآن قرية في شرقي اليمن لا تزال آثارها وأطلال قصورها ظاهرة ومأهولة ببعض السكان تبعد عن مأرب نحو خمسين كيلومتراً إلى الغرب. وقد كانت الدولة السبئية في هذا الدور تحاول النهوض ومزاحمة المعينيين وكان لرؤسائها حينئذٍ السلطة الروحية ولقبهم مكرب سبأ، إلى أن انتهى هذا الدور سنة ٦٥٠ ق. م. والدور الثاني لما انتقلت العاصمة إلى مأرب، وفيه اختص الملوك بالسلطة الزمنية وصار لقبهم ملك سبأ. وهذا الدور هو أعظم عصور الحضارة السبئية ودام أكثر من خمسة قرون.

ظل السبئيون في يسار وترف زائدين وإذا تصدعت السدود رمموها إلى أن زادت المنافسة التي ذكرناها وفقدت قوافل البر ما كان لها

من الشأن وذلك بتقدم فن الملاحة لدى الرومانيين الذين خلفوا اليونان، وبحلول الطرق المائية في البحرين الأبيض والأحمر مكان الطرق البرية المعرضة لخطر غارات البدو وقطاع الطرق دائماً. فضعف شأن السبئيين وتحولت عنايتهم من شرقي اليمن الذي مالت ظواهره الجوية من الخصب إلى الجدب أكثر من قبل، وانتقلوا إلى اليمن الأعلى فعمروا فيه مدينة ريدان وهي الآن قرب بلدة يريم الحالة وعمروا مدينة صنعاء أيضاً فأخذت مأرب بالتقهقر.

وانتقلت الدولة في سنة ١١٥ ق. م. إلى الحميرين، وهم من فروع السبئيين أو من أتباعهم وبالإمكان أن تعد دولتهم تتمة دولة السبئيين. وكان ملوكهم يدعون ملوك سبأ وريدان ثم لما فتحوا حضرموت أضافوا كلمة وحضرموت وكان حكام المقاطعات أو المخاليف يدعون بالأقيال أو الأذواء كذي يزن وذي جدن وذي أشرع. ونقل الحميريون عاصمتهم إلى صنعاء وكانت دولتهم دولة حرب وفتح، فقد نبغ من ملوكها وأقيالها من فتح البلاد المجاورة كحضرموت وعمان ودفع الأحباش الذين كانوا يطمعون باليمن ويهاجمونه الفينة بعد الفينة. بدأوا بذلك منذ القرن الرابع الميلادي.

وورث الحميريون تجارة السبئيين وزراعتهم وصناعتهم، وزادوا فيها ركوب سفن البحر فوق ما كان لهم من قوافل البر، وأتقنوا فن جر الأثقال والريازة فبنوا مدناً وحصوناً وقصوراً شاهقة متعددة الطباق، حتى بلغت في ما قبل عشرين سقفاً في قصر غمدان الذي كان في صنعاء، بينما الآن لا يزيد عدد طباق قصور صنعاء الحالية على الثلاث أو الأربع وأجادوا استثمار جبال اليمن، فحولوا منحدراتها السحيقة إلى حقول مدرجة لا يزال أعقابهم سكان اليمن الحاضرون

يقلدونها، وأكثروا من عدد السدود وعنوا بترميمها كلما تصدعت، فلم يغادروا قطرة تذهب سدى كما تذهب الآن للأسف، وحفروا المناجم واستخرجوا المعادن وصنعوا الطيوب والعطور وتاجروا بها وأثروا.

وما زال الحميريون في بذخ وترف وظهور وعلو، حتى ازداد حسد الأحباش وطمعهم بهم، فاتخذوا اضطهاد أحد ملوك حمير لنصارى نجران حجة، وكان اسم هذا الملك الحميري يوسف ذا نواس وكان متهوداً يجبر الناس على التهّود ويضطهد المتنصرين وقد أحرق بعضهم في الأخاديد، ولما استجار نصارى نجران بقياصرة بيزنطية كلف هؤلاء الأحباش بمحاربة ذي نواس، فجاء الأحباش بهذه الحجة وانقضوا على الحميرين سنة ٥٢٥م. وغلبوهم بعد حرب ودفاع شديدين وعاثوا في بلادهم، ومن المؤسف أنهم خربوا القصور ويعثروا الآثار والنقوش الكتابية وقضوا على عمران اليمن كله الذي كان نتيجة جهود إثنين وعشرين قرناً في عهود المعينيين والسبئيين والحميريين. ومما عملوه أنهم نشروا الديانة النصرانية واضطهدوا مخالفيها حتى أنهم بنوا في صنعاء كنيسة عظيمة دعوها (القليس) أرادوا أن تنافس الكعبة في مكة فيحج إليها العرب. لكنهم لم يفلحوا بذلك وأخفقت التجريدة التي بعثوها إلى مكة لهدم الكعبة سنة ٥٧٠ م.

ولما عظم بلاؤهم على أهل اليمن وطال استنجد هؤلاء بالفرس فأنجدوهم نكاية بخصومهم البيزنطيين ورغبة باستعمار اليمن وأرسلوا مع رئيس اليمانيين حينئذٍ وكان اسمه سيف بن ذي يزن جيشاً اشترك مع اليمانيين في محاربة الأحباش وانتصر عليهم وطردهم، بيد أن اليمانيين انتقلوا من نير الأحباش إلى النير الفارسي،

لأن الفرس استطابوا المكوث في اليمن واستعماره في حين أنهم كانوا قادمين لنجدته، وقد أضعفت هذه الحروب اليمانيين وحالت دون ترميمهم سد مأرب. فكان تهدمه الأخير الذي حدث حول سنة ٥٤٣ أو ٥٧٠ م مع مصيبة الأحباش وما أتوه من التهديم والتقطيع وغلبة المسالك البحرية على البرية نهائياً وتحول الظواهر الجوية في مشارق اليمن وبراري الجوف من خصب إلى جدب. . . . كل ذلك كان سبباً في انتهاء عمران اليمن القديم وزوال سعادته التي بهرت عيون الرومان، وضياع استقلال أهله، لأن الفرس ولوا نوابهم حكم اليمن وبسطوا نفوذهم على جنوبي الجزيرة العربية، كما كان منبسطا على شماليها وشرقيها وما زالوا حتى ظهر الإسلام وانتشر في اليمن.

* * *

عمال النبي ﷺ والخلفاء:

لما أسلم باذان نائب كسرى ولاه النبي (ﷺ) على جميع مخاليف اليمن، وبعث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعدداً من الصحابة لنشر تعاليم الإسلام في أنحاء اليمن.

وبقي باذان حتى مات بعد حجة الوداع، فولى النبي ابنه شهر على صنعاء، وولى ولاة آخرين على بقية اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات، إلى أن خرج الأسود العنسي متنبئاً، فقتل العنسي شهر بن باذان، وأخرج عمال النبي من اليمن، ولما توفي ارتد أهل اليمن، فحاربهم الخليفة أبو بكر وأرجعهم إلى الإسلام، وتوالت عماله وعمال من كان بعده من الخلفاء.

ولما استتب الأمر لأبي بكر في الجزيرة العربية شرع يستنفر قبائل

العرب للجهاد في سبيل دعوة الإسلام: فزحفت منها جحافل جرارة، كان لليمانيين والحضرميين منها نصيب في الفتوحات الإسلامية التي بدأت في عهد أبي بكر ودامت إلى عهد من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين وضربت من الجزيرة إلى حدود الصين والهند شرقاً والأطلنتيك غرباً، وظل الخلفاء المذكورون يندبون قبائل العرب للغزوات ويستجيشونهم للفتوحات بدون انقطاع، لأنهم مادة الإسلام وعصبه، فكانت القواصي تأكلهم، والحروب تفني منهم مئات الألوف.

ويظهر أن الخلفاء وعمالهم في اليمن لم يتسع لهم الوقت والفكر لإعادة عمران اليمن وتشييد سدوده، بل إكتفوا بإقرار الأمن وجبي الخراج واستنفار القبائل إلى الجهاد. فخلا كثير من ديارهم الأصلية، وصفرت الجزيرة عامة واليمن خاصة ممن يكفي للتعمير والتشييد المذكورين. فكان في ذلك ضرر بليغ دامت آثاره إلى يومنا هذا.

وتوزعت فلول القبائل اليمانية الزاحفة في الأقطار المفتوحة وظلت محتفظة بأسمائها اليمانية، رغم تعاقب الأجيال. إلا أن روح العصبية الجاهلية التي عفى الإسلام على أثرها وشدد في النعي عليها ذر قرنها في أوائل العهد الأموي؛ بين اليمانيين والقحطانيين ومنافسيهم من القيسيين والنزاريين وانتشرت في الأقطار المفتوحة ولا سيما في الشام وخراسان والأندلس، ودامت هذه الروح الخبيثة عصوراً عديدة، تشب نارها تارة وتخمد أخرى، سالت بسببها دماء غزيرة كانت من أكبر العوامل في ضعف الأمة العربية وتغلب الأعاجم على أمرها وزوال مجدها من تلك الأقطار.

ومن أحداث تلك الحقبة في اليمن الاقتتال الذي جرى بين

عمال علي ومعاوية إلى أن استتب الأمر لمعاوية، ومنها نهوض عبدالله بن يحيى الكندي الحضرمي سنة ١٢٩ بدعوة الأباضية وطلبه الخلافة لنفسه من مروان بن محمد الأموي وزحفه واستيلاؤه على صنعاء ومكة المكرمة والمدينة إلى أن جهز عليه مروان جيشاً قتله وأخمد فتنته، ومنها انصراف رؤساء اليمن إلى التنازع والاختلاف. ولم تزل عمال الخلفاء مستولية على اليمن في عهد الأمويين إلى أيام المأمون العباسي ولما ظهرت دعوة الأشراف العلويين بالنواحي جاء منهم إبراهيم بن موسى الكاظم إلى اليمن سنة ٢٠٠ واستخلصه من عامل المأمون واستفحل أمره وكان يسمى الجزار لكثرة من قتل وسبى، ولكن أمره لم يتم، لأن المأمون لما بلغه اختلال أمر اليمن وانتشار دعوة الأشراف العلويين فيه وجه إليه محمد بن إبراهيم بن زياد بن أبيه، ضامناً له صيانته من العلويين، فقدمها سنة ٢٠٣ وفتح تهامة بعد حروب، واختطت مدينة زبيد سنة ٢٠٤ وصيرها كرسياً لمملكته وعظم أمره بعد ذلك في كل اليمن وحضرموت، وصار كملك مستقل إلا أنه كان يخطب لبني العباس ويحمل اليهم الخراج والهدايا.

(دولة بني زياد) ٢٠٣-٤٠٧هـ : ثم صار الملك في ابناء محمد المذكور، ولما رأى هؤلاء ما حل ببني العباس من الضعف، استبدوا وألفوا دولة بني زياد، وصاروا يحكمون التهائم دائماً والجبال أحياناً.

ومن مشهوريهم الذي طالت مدته واتسعت سلطته وثروته أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩١. وكان مبلغ جبايته في ما قبل ٠٠٠, ١,٣٦٦ من الدنانير العثرية[1] ما عدا ضرائبه على

(١) عثر: اسم موضع بتهامة يظهر أنه كانت تضرب فيه [illegible]ير.

مراكب السند وعلى العنبر الواصل بباب المندب وعدن أبين، وعلى مغائص اللؤلؤ، وعلى جزيرة دهلك[1] وبعضها وصائف، وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر يهادونه ويخطبون مواصلته. ودامت دولة ابن زياد نحو قرنين إلى أن انقرضت سنة ٤٠٧.

(**دولة بني يعفر ٢٤٧-٣٨٧**): وفي عهد بني زياد كان في الجبال دولة اسمها دولة بني يعفر، لمؤسسها يعفر بن عبدالرحيم الحوالي، وكانت قاعدتهم صنعاء إلا أن أمراءها كانوا يدفعون الخراج إلى بني زياد في زبيد، كأنهم عمال لهم، كما كان بنو زياد نواباً للخلفاء العباسيين.

(**دولة الأئمة الزيدية**): لما اشتدت قسوة الخلفاء العباسيين على الأشراف العلويين وأخفق هؤلاء في وثباتهم العديدة التي قاموا بها لنيل الخلافة في العراق والمغرب والحجاز وجرجان وطبرستان وقتل منهم بالتتابع أناس كثيرون وكان منهم صاحب الدعوة الزيدية، زيد بن حسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، خرج زيد هذا على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي فقتل وصلب سنة ١٢٢ هـ وخرج بعده يحيى فقتل كذلك سنة ١٢٥ واستمر القتل والتشتيت في هؤلاء الأشراف من قبل الأمويين والعباسيين إلى أن التجأ أحدهم إلى اليمن في سنة ٢٨٠ وهو الحسين بن القاسم الرسى، فكان من عقبه أئمة الزيدية في اليمن. وأول من خرج منهم ابنه يحيى في صعدة شمالي اليمن وتلقب بالهادي سنة ٢٨٨ ونشر دعوته الزيدية وحارب بني يعفر وملك صنعاء وما بينها وصعدة وحارب أيضاً علي بن

---

(١) دهلك: جزيرة في وسط البحر الأحمر قريبة من الساحل الافريقي؛ نفي إليها الشاعر الأجوص المتوفى سنة ١٠٥ هـ.

الفضل القرمطي، ثم ارتجع بنو يعفر البلاد التي أخذها ورجع هو إلى صعدة وبعد موته في ٢٩٨ توالى قيام أخلافه من الأئمة.

وعلي بن الفضل المذكور رجل نشأ في تلك الحقبة في اليمن الأسفل وتبعه خلق كثير. كان قرمطي المذهب إدعى بعد بالنبوة وأباح لأتباعه كل المحظورات كشرب الخمر ونكاح البنات والأخوات وسائر المحارم، واستفحل أمره في كل اليمن وقتل خلقاً كثيراً واستمر ثلاث عشرة سنة، وحاربه الإمام الهادي إلى أن مات مسموماً سنة ٣٠٣ وانطفأت فتنته.

(دولتا بني نجاح وبني الصليحي) ٤٠٧ ـ٥٥٣: وبعد انقراض آل زياد سنة ٤٠٧ حكم التهائم فروع منهم كانوا عبيدهم وعبيد عبيدهم، منهم عبد اسمه نجاح، استقل بملك التهائم أربعين سنة. ولما مات خلفه ابنه سعيد الأحول، فثار عليه رجل من أمراء الجبال اسمه الصليحي كان يدعو للفاطميين أصحاب مصر، بينما كان سعيد وأبوه من قبل يدعو للعباسيين، واغتصب الصليحي زبيداً، لكن سعيداً عاد وهاجم الصليحي وقتله، وظلت زبيد تتعاورها أيدي أبناء الصليحي تارة وسعيد بن نجاح أخرى، والغارات دائرة بينهما إلى أن قتل سعيد فخلفه أخوه ثم أبناء أخيه إلى أن إنقرضوا سنة ٥٥٣ وبقي أمر اليمن في تقلقل، الجبال لرجل وتهامة لآخر وعدن لغيرهما إلى أن ظهرت دولة بني المهدي.

(دولة بني المهدي) ٥٥٤ ـ ٥٦٤: ملك منهم ثلاثة، وكانت عاصمتهم زبيد، ولكن لم تطل مدتهم كثيراً. أولهم علي بن مهدي الحميري، كان في بدء أمره رجلاً صالحاً وواعظاً. فمال إليه الناس

واستفحل شأنه واعتصم بالحصون، ثم حاصر زبيد عقيب موت آخر بني نجاح واستخلصها من عبيدهم. وبعد موته ملكها ابنه ثم حفيده، إلى أن قدم تورانشاه بن أيوب وقضى عليه، وكان مذهب علي ابن المهدي التكفير بالمعاصي وقتل مخالفيه في العقيدة.



لمحة من تاريخ اليمن
قبل الاسلام وبعده[1]

ـ ٣ ـ

دولة بني أيوب ٥٦٩ ـ ٦٢٠ هـ :

كانت دار ملكهم زبيد وأولهم الملك تورانشاه بن أيوب. وسبب قدومهم إلى اليمن أن السلطان صلاح الدين بن أيوب وأهله كانوا خائفين من نور الدين محمود زنكي فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر، بحيث إذا قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة. فجهز صرح الدين أخاه شمس الدين تورانشاه إلى اليمن في سنة ٥٦٩، وكان صاحبها عبدالنبي بن علي بن المهدي فحاصره تورانشاه في زبيد حتى طلب الأمان وأسره واستخلص زبيد منه، ثم استخلص عدن من أصحابها بني زريع، وفتح صنعاء ودانت له بلاد اليمن كلها. ثم رجع إلى مصر سنة ٥٧١

---

(١) نشرت في مجلة المعرفة السورية السنة الثانية العدد السابع في شهر أيلول / سبتمبر عام ١٩٦٣ م.

ثم إلى الاسكندرية وظل نوابه يديرون اليمن ويبعثون إليه بأموالها، ولما مات تورانشاه سنة ٥٧٦ أرسل صلاح الدين أخاه الثاني الملك العزيز سيف الإسلام طغتكن بن أيوب وجعله والياً على اليمن، فجاء طغتكن، وقبض على نواب أخيه الذين كانوا يتنازعون واستصفى منهم أموالاً عظيمة، وظل يحكم في اليمن خمس عشرة سنة، بنى خلالها قلعة جبل التعكر وقلعة حب وحصن كوكبان وسور صنعاء وسور زبيد سنة ٥٩٣ ثم ملك بعده ابنه العزيز إسماعيل، وكان فيه هوج وخبط فأساء السيرة فقتله أمراؤه وملك بعده أخوه الناصر أيوب وكان صغيراً، فقام بتدبير مملكته أحد مماليك أبيه، ولما مات الناصر مسموماً سنة ٦١١ خلفته أمه مدة وظلت تنتظر وصول أحد من بني أيوب لتتزوج به وتملكه البلاد، فجاءها أحدهم وهو سليمان بن سعد الدين بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وكان فقيراً يحمل الركوة على كتفه ويتنقل مع الفقراء[1] فأحضرته وولته، فملأ اليمن ظلماً وجوراً واطرح زوجته وولية نعمته، فبعث إليه عمه الملك الكامل أحد أبنائه واسمه المسعود يوسف فاعتقل سليمان وتولى اليمن سنة ٦١١ ثم كره المقام فيه فرجع قاصداً الشام سنة ٦٢٠ وأناب عنه علي بن رسول الغساني الذي كان استاذ داره، فتغلب هذا على اليمن وانتهت دولة بني أيوب وكانت مدتها ٥٧ سنة.

دولة بني الرسول الغسانيين ٢٠ ـ ٨٥٨ هـ

أصل هؤلاء تركمان، لكنهم زعموا أنهم عرب من أعقاب جبلة بن الأيهم آخر ملوك بني غسان وصاحب القصة المعروفة مع

---

(١) ابو الفداء ج ١ ص ١٠٨.

الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن بعض أحفاد جبلة كان إندمج في عشيرة تركمانية فصاروا من التركمانيين، ولكنهم عرب غسانيون في الأصل، وقد كان أحدهم خدم الخلفاء العباسيين وكانوا يرسلونه رسولاً إلى مصر والشام فغلب عليه لقب رسول ثم انتقل ابناؤه إلى خدمة صلاح الدين الأيوبي، وأحسنوا الخدمة، فبعثهم مع أخيه تورانشاه إلى اليمن، وبرز بينهم علي بن رسول، استقر نائباً لبني أيوب حتى مات فخلفه ابنه (نور الدين عمر) وتلقب بالملك المنصور واتسعت سلطته، وفي عهده ظهر الإمام شمس الدين أحمد الزيدي، واستفحل أمره في الجبال فحاربه الملك المنصور وغلبه، وبنى المنصور في اليمن كثيراً من المساجد والمدارس، وله في مكة مدرسة كبيرة. وظل مالكاً إلى أن اغتاله مماليكه الذين كان قد استكثر منهم، وذلك في سنة ٦٤٧، فخلفه ابنه (المظفر يوسف) حارب الإمام أحمد الزيدي وغيره من أئمة الزيدية مراراً، وكان عالماً فاضلاً، صفا له ملك اليمن وطالت مدته ٤٧ سنة. وكان يؤدي أتاوة لملوك مصر المماليك وتحفاً وهدايا دامت حتى زمن أعقابه، ولما مات سنة ٦٩٤ خلفه ابنه (الأشرف عمر) وكان كأبيه وجده عالماً فاضلاً ومدبراً، ظل سنتين فقط، فخلفه أخوه (المؤيد هزبر الدين داود) حارب الأئمة الزيدية مراراً وكان يتغلب تارة ويغلب أخرى، وتبع المذهب الشافعي واشتغل بالعلم واعتنى بجمع الكتب، حتى اشتملت خزائنه على مئة ألف مجلد، وبر بالعلماء. ولما مات سنة ٧٢١ خلفه (المجاهد علي) الذي ظل ملكاً ٤٣ سنة، ولما مات سنة ٧٦٤ خلفه ابنه (الأفضل عباس) فمضت أيامه في الفتن، وكان يهاجمه أئمة الزيدية وأشراف مكة وتثور عليه القبائل، وكان منصرفاً إلى العلم والتأليف، ولما مات

سنة ٧٧٨ خلفه ابنه (الأشرف إسماعيل)، فمرت أيامه بسلام، وظل خمساً وعشرين سنة. ثم توالت بعده الملوك وثارت في زمنهم فتن كثيرة وضعف أمرهم إلى أن انقرضوا سنة ٨٥٨ وانتقل الملك إلى وزرائهم بني ظاهر.

كانت دولة بني الرسول في الجملة، دولة علم وأدب وخزائن كتب وإنشاء مدارس وتآليف في التاريخ والطب وغيرهما، مما عز نظيره في بقية دول اليمن بل دول الشرق كله في تلك العصور وبعدها، وصف القلقشندي في صبح الأعشى زيهم وشعارهم وأرباب وظائفهم وعاداتهم في إنشاء الدواوين واقتدائهم بالسلاطين المماليك المصريين في الأبهة وذكر كثرة أموالهم ولهوهم وعنايتهم بالتجار وأرباب الصناعات وإكرامهم للغرباء والقصاد، وأن أحدهم (لا ينزل في أسفاره إلا في قصور مبنية له في منازل معروفة من بلاده، فحيث أراد النزول بمنزلة وجد بها قصراً مبنياً ينزل فيه). وقال: وإنما تجتمع لهم الأموال لقلة الكلف في الخرج والمصاريف والتكاليف (لقلة أعوانهم ولأنهم محجوبون ببحر زاخر وبر منقطع من كل جهة) ولأن الهند يمدهم بمراكبه ويواصلهم ببضائعه، وكانوا مع أئمة الزيدية في المشاجرة والمهادنة تارة والمفاسخة أخرى. وكان مشتاهم في زبيد ومصيفهم في تعز. ويملكون كل التهائم الغربية والجنوبية واليمن الأسفل بما فيها تعز ولحج وعدن والشحر، وكانوا يقدمون إلى السلاطين المماليك في مصر الضريبة المقررة والهدايا والتحف في كل سنة، ويستنجدون بهم عند العجز، وتأتيهم من مصر الجنود وتؤازرهم في ما يطلبونه من إقرار الأمن أو تأييد السلطنة. ويذكر من مؤلفي الكتب بينهم المظفر يوسف بن عمر له (المعتمد في مفردات

الطب) مرتب على الحروف الهجائية، طبع في مصر في مطبعة مصطفى البابي وله كتاب في صناعة الاضطرابات وعملها، عليه إجازات من علماء الهيئة ـ وهو من مخطوطات الخزانة التيمورية ـ في مصر على ما بلغني. والأفضل عباس بن علي، له (نزهة العيون في تاريخ اليمن) و(طبقات فقهاء اليمن) ومختصر (ابن خلكان) وابنه الأشرف إسماعيل، له (المسجد المسبوك والجوهر المحكوك) في أخبار الخلفاء والملوك) وقد جمع الشيخ علي بن الحسن الخزرجي أخبار هذه الدولة في كتاب أسماه (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية) طبع في مطبعة الهلال في مصر سنة ١٣٢٩ هـ على نفقة أوقاف ذكرى السيد حبيب الاسكتلاندي.

دولة بني طاهر ٨٥٩ ـ ٩٤٥:

زعم هؤلاء أنهم من أعقاب الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، ولا يعلم كيف ومتى دخلوا اليمن وصاروا وزراء لبني الرسول وقوي شأنهم حتى طمعوا بالملك لما ضعف أسيادهم. أولهم الظاهر عامر بن عبد الوهاب. أخذ بلاد اليمن بعضها من بني الرسول وبعضها من أئمة الزيدية إلى أن قتل في حربه معهم قرب صنعاء. فخلفه أخوه (المجاهد علي) سنة ٨٧٠، وكان هذا جواداً عالماً بنى مدارس عديدة وجلب لها أساتذة من مكة وغيرها، ثم خلفه ابنه (الظافر عامر) سنة ٨٩٤، وكان عادلاً ومحباً للعلم والعلماء، حارب أئمة الزيدية في الجبال وغلبهم واستولى على صنعاء. فآوت فلولهم إلى صعدة. وفي عهده ظهر البرتغاليون واستولوا على بعض سواحل الحجاز واليمن والهند، واستفحلت شرورهم. فاستجار الملك عامر كما استجار ملك كجرات مظفر شاه بالسلطان قانصوه الغوري آخر

ملوك الشراكسة في مصر، فأرسل إليهم قانصوه الغوري عسكراً وسفناً بقيادة أمير اسمه حسين الكردي مشهور بعسفه وجبروته. وطرد هذا الأمير البرتغاليين من سواحل الحجاز واليمن لكنه أخفق في مقاتلتهم في سواحل الهند. فرجع إلى اليمن وطمع في الاستيلاء عليه فهاجمه واستولى على الحديدة وزبيد. فدافعه الملك عامر وما زال يناضل عن ملكه تجاه الأمير حسين تارة والإمام شرف الدين وابنه المطهر حتى خر صريعاً في إحدى الحروب سنة ٩٢٣ فخلفه ابن عمه (عامر بن داود) وثابر هذا على قتاله مع الإمام المطهر، لكنه غلب وضعف أمره وجاء الترك العثمانيون في تلك الحقبة بعد أن فتحوا مصر وهاجموا عدن آخر مقر للملك عامر فقتلوه صلباً، وبه انتهت الدولة الطاهرية، وهي آخر الدول الشافعية الكبرى التي حكمت اليمن. امتحنت بمحاربة البرتغال والشراكسة والأتراك من الخارج والأئمة الزيدية من الداخل.

الشراكسة في اليمن:

يظهر أن هؤلاء كانوا من بقايا مماليك الشراكسة الذين حكموا مصر، ملك اليمن منهم ثلاثة أمراء. وكان ظهورهم سنة ٩٢٢، وقد بقوا خمس سنوات لم يأتوا إلا بما لا يحمدون عليه، أولهم الأمير حسين الكردي، وكان سبب دخوله اليمن أنه بعد رجوعه من الهند غير موفق كما قدمنا جاء إلى سواحل اليمن وبعث يطلب من الملك عامر - آخر ملوك بني ظاهر - مؤونة لعسكره، ولما رفض عامر تلبية الطلب غضب حسين وعزم على سلبه بلاده، وقيل إن الإمام شرف الدين الذي سيأتي ذكره، حرضه على ذلك وأعانه بجمع من الزيدية وكان مع الأمير حسين مدافع وبنادق نارية مما كان يجهله اليمانيون وقتئذٍ،

فانتصر بهذه الأسلحة الحديثة على جند الملك عامر واستولى على الحديدة وزبيد ونهبهما، ثم ذهب إلى عدن وحاصرها بسفائنه فلم يفز بطائل، وبعد أن أخذ ما أخذ أبقى نائبه (برسباي) في اليمن، ورجع إلى جدة فقتل فيها، وبعد ذهاب حسين تفرد برسباي المذكور في اليمن واجتمع إليه عدد من بقايا الشراكسة الذين خرجوا من مصر على أثر دخول السلطان سليم العثماني، وظل برسباي يجور ويستبد ثم سار إلى حرب الملك عامر الذي كان قد ضعف أمره فغلبه واستولى على تعز ونهبها، وظل لاحقاً بقفا عامر حتى قتله وشتت شمل أتباعه، ثم جاء صنعاء وأخذها من عامل الملك عامر وعذبه واستصفى أمواله، كما نهب عسكره صنعاء وأفحشوا فيها، وبينما هم راجعون إلى زبيد بما غنموه هاجمتهم قبائل الجبال فقتلت برسباي وكثيراً من أمرائه وجنوده واستولت على غنائمه. فخلفه في زبيد الأمير الاسكندر، وكان يحكم التهائم كما كان الإمام شرف الدين يحكم الجبال. ولما بلغ اسكندر أن السلطان سليم أتم فتح مصر وقضى على دولة المماليك الشراكسة وأخذ الخلافة صار يخطب باسم سليم. لكن ذلك لم ينفعه فقد داهمه الترك العثمانيون سنة ٩٣٧ وقتلوه واستولوا على اليمن، وسيأتي بيان ذلك.

دولة الأئمة الزيدية أيضاً:

عقب وفاة الإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي الذي تقدم ذكره، خلفه ابناؤه في منزلهم في صعدة لا يتجاوزونها إلى الجنوب إلا قليلاً، ولم تزل إمامة هؤلاء الرسيين مطردة خلال القرن الخامس إلى أن وقع الخلاف بينهم، وجاء فرع من أبنائهم واسمهم السليمانيون، فتغلبوا على صعدة في القرن السادس، وأول السليمانيين المتوكل أحمد

ابن سليمان ٥٦٦ هاجم زبيد واستخلصها من بني المهدي ثم أضاعها وخلفه المنصور عبدالله سنة ٥٩٣، فحاربه طغتكين والملك المسعود الأيوبليين، ثم رجع بنو الرسي واستعادوا الإمامة، وكان أولهم الموطأ أحمد الذي حارب ملوك بني الرسول إلى أن قتله أتباعه وحزوا رأسه سنة ٦٥٦ وخلفه آخرون ألقابهم: المؤيد بالله والمنصور بالله والمهدي لدين الله والمطهر والناصر.. إلى كثير من أمثال ذلك.

ولما كانت أحكام المذهب الزيدي، ليس فيها إمامة بالنص ولا بالتعيين ولا مجال لتسمية أولياء للعهد جاز لكل سيد فاطمي عالم زاهد شجاع سخي قادر على القتال في سبيل الحق أن يخرج للمطالبة وأن يكون إماماً، وقد اشترطت تلك الأحكام على الإمام أن يخرج على الأمراء والسلاطين أيضاً للمطالبة بالخلافة. لهذا صار كل سيد فاطمي في اليمن يرى في نفسه حيازة هذه الشروط، يخرج لتقلد الإمامة، فإذا ما استولى عليها يقوم لطلب الخلافة ويثير لأجلها الفتن والاضطرابات ويشهر الحروب ويخوض المعارك، حتى ينال مبتغاه ويسود، أو يخفق في مسعاه، فيأوي إلى أحد المعاقل متحيناً الفرص للوثوب والقتال وهكذا، ولا بأس إذا هلك خلال ذلك حرث اليمن ونسله وتقوض عمرانه وشقي من بقي من سكانه.

وصف القلقشندي هؤلاء الأئمة في كتابه صبح الأعشى (ج ص ٥١) فمما قاله: إمارتهم أعرابية بدون كبر ولا شمم وربما اشترى أحدهم سلعته بيده ومشى بها في أسواق بلده، وما منهم إلا ويعتقد في نفسه ويعتقد أشياعه فيه أنه إمام معصوم مفترض الطاعة ويرون أن ملوك الأرض وسلاطين الأقطار يلزمهم طاعته ومبايعته حتى خلفاء بني العباس وأن جميع من مات منهم عاصياً بترك مبايعته ومتابعته، ويجـ

يزعمون ويزعم لهم أن سيكون لهم دولة يدال بها بين الأمم وتملك منتهى الهمم، وأن الإمام الحجة المنتظر في آخر الزمان منهم، يتربصون الدولة في أقطار الأرض، ناهيك شرط الخروج على الأمراء والسلاطين بطلب الخلافة، المكلفين به بحكم الإمامة، كل ذلك كان يدفع بهؤلاء الأئمة دائماً إلى إيقاد نيران الفتن والحروب ومحاربة الدول الحاكمة في التهائم والجبال ليصفوا لهم اليمن أولاً، ثم يتجاوزون إلى غيره... وقد لبثوا منذ أواخر القرن الثالث إلى منتصف القرن العاشر يهاجمون ملوك بني يعفر وبني المهدي وبني أيوب وبني الرسول وبني طاهر، كما هاجموا في ما بعد الترك العثمانيين، وذلك كلما انسوا في أنفسهم قوة وفي أولئك ضعفاً، فإن ظفروا، امتلكوا صنعاء واستقروا فيها ومدوا أيديهم حتى زبيد ولحج وحضرموت، وإن فاز أولئك عليهم انكمشوا إلى معاقلهم في صعدة، وأخلدوا إلى سكينة موقتة يتحينون الفرص للوثوب، ويكون بينهم وبين ملوك الدول كما جاء في صبح الأعشى مهادنات ومفاسخات تارة وتارة، وإذا تفاسخوا يكون النصر سجالاً بين الفريقين، وكثيراً ما كان يظهر للإمام منهم من إخوانه وأبناء عمه معارض أو معارضان أو ثلاثة أو أربعة في وقت واحد أو في أوقات متتابعة لجواز ذلك في المذهب الزيدي، ولادعاء كل منهم بحيازة شروط الإمامة أكثر من غيره، فلا يسع القوي منهم إلا مهاجمة الضعيف، فينشب القتال فتسفك الدماء حتى يفوز أحدهم وينفرد بها، وفي خلال ذلك تبقى بلاد اليمن المنكودة الحظ في أمر مريع وعويل وضجيج، وقل من هؤلاء الأئمة من مات حتف أنفه، بل إن كثيراً منهم قضى مسجوناً أو مسموماً أو محزوز الرأس أو مسمول العين، ولا تتسع هذه العجالة لأسمائهم وأخبارهم وأعمالهم التي ليس فيها سوى أحاديث الفتن والكوارث الآخذ بعضها برقاب

بعض، وكلها لأجل نوال الإمامة أو تدعيم السيادة، على أن كثيراً من هؤلاء الأئمة كان على جانب غير يسير من علوم اللغة وفقه المذهب الزيدي ولبعضهم في هذه العلوم فقط مؤلفات[1]. أما في موضوعات العمران والإنشاء وفي ما يعود لإصلاح البلاد وإسعاد العباد فلم ير أو يسمع أن أحداً منهم أتى بأثر جدير بالتنويه والشكر رغم مواتاة الأحوال وطول البقاء لكثير منهم، مما يدل على أن هذه الأمور والأعمال الأساسية كانت خارج تصورهم وتقديرهم، اللهم إلا بعض الأضرحة والقبب والمساجد والبرك (جمع بركة). وقد زرت قسماً منها سنة ١٣٥٤ وتحققت ذلك الإهمال والتواني.

الدولة العثمانية في دورها الأول (٩٢٧ ـ ١٠٤١):

لما فتح السلطان سليم مصر سنة (٩٢٣) واستولى على الخلافة وصار يخطب له في الحجاز أيضاً، رأى أنه لا بد من أخذ اليمن لأنه ما زال دعامة الحجاز، وبلغ نوابه في مصر وجدة ضعف حال اليمن في تلك الحقبة وخلوه ممن يحسن الإدارة فيه، فبعثوا من قبلهم أمراء وجنوداً جاءوا في سنة ٩٢٧ وقتلوا الأمير إسكندر الشركسي واستولوا على التهائم واليمن الأسفل فقط، أما اليمن الأعلى في الجبال فقد ظل في يد الإمام شرف الدين، لكن أولئك الأمراء ظلوا عدة سنين

(١) إن كثيراً من هذه المؤلفات التي وضعها الأئمة المذكورون وملوك بني الرسول وغيرهم ممن نبغ في اليمن من قبل ومن بعد قد خرج من اليمن وانتقل إلى استانبول بيد الترك أو إلى ايطاليا بيد الإيطاليين، وقد جمع الإيطاليون واشتروا كتباً كثيرة من اليمن ووضعوها على ما علمت في مكتبة الأمير وزيانا في ميلانو، لكن معظمها في فقه المذهب الزيدي وبعضها دواوين شعر لبعض الشعراء باليمن وقليلها في تاريخ اليمن عامة وصنعاء خاصة، وما زال خروج الكتب مستمراً حتى فقدت كتب التاريخ الصالحة للمراجعة أو كادت.

يتنازعون في ما بينهم على الولاية ولم يحسن أحدهم الإدارة والسياسة، فرأى الإمام شرف الدين ـ الذي أشرنا إلى مقدرته وبسالته ـ الفرصة سانحة فشرع سنة ٩٣٤ هو وابنه المطهر يناجز العثمانيين ويدفعهم حتى أخذ التهائم ووصل فيها إلى لحج وأبين وجيزان وأبي عريش ولم يبق في يد العثمانيين سوى زبيد التي تحصنوا وراء أسوارها، ولما رأت الدولة هذه الحالة بدأت منذ سنة ٩٤٥ تهتم باليمن وصارت ترسل من العاصمة قواداً وجنوداً أكثر عدداً وكفاية من الأولين، وجعل هؤلاء استرداد اليمن وإكمال فتحه نصب أعينهم، وما زالوا يراوحون الإمام شرف الدين القتال ويغادرونه، حتى تسنى لأحدهم وهو أودمير باشا أن يستولي بعد معارك شديدة على صنعاء في سنة ٩٥٤. ثم سار إلى الشمال واستولى على صعدة في سنة ٩٦٠ فدان له بذلك كل اليمن وعدّوه (فاتح اليمن الأول) ثم عقد صلحاً مع الإمام المطهر الذي خلف أباه. ظل هذا بموجبه قابعاً في معتصمه في حصن تلا. ثم جاء بعده ولاة ضعفاء كان أحدهم واسمه رضوان باشا مأفوناً فنقض الصلح المعقود مع الإمام المطهر واعتدى عليه، لكنه لقي جزاء بغيه وانكسر في المعارك التي أثارها وكان سبباً لانتقال أكثر بلاد اليمن إذ ذاك إلى الإمام المطهر، ولم يبق في يد العثمانيين سوى زبيد. على أن هؤلاء لما رأوا ما حل بهم عادوا فأرسلوا سنة ٩٧٦ قائداً مغواراً اسمه سنان باشا الكبير[1] استطاع بعد حروب هائلة أن يسترد أكثر بلاد

---

(١) تولى سنان باشا الصدارة العظمى عدة مرات وتوفي في سنة ١٠٠٤ وكان صاحب أموال جسيمة ومبرات عديدة، منها الجامع المنسوب إليه في دمشق والخانات التي ينزلها المسافرون في بلاد الشام وغيرها والباقي منها سالماً أكثر من غيره خان القطيفة وخان سعسع قرب دمشق وواحد في اليمن لا يزال يدعى باسمه. هذا عدا المساجد والمدارس والحمامات، وقد أنفق على هذه المعاهد الخيرية في ما قيل مليوني دينار وهو =

اليمن من يد الإمام المطهر فعدّوه (فاتح اليمن الثاني).

ومن مشاهير الولاة الذين خلفوا سنان باشا يذكرون مراد باشا الملقب بالبياري[1] وجد في سنة ٩٨٣، وبني جامعاً في حصن صنعاء الداخلي المسمى بالقصر وآخر في تعز. وهو الذي جلب إلى صنعاء ماء من سفح جبل نقم فسمي هذا الماء (غيل الباشا). ويذكرون أيضاً حسن باشا الأرناؤط في سنة ٩٨٨ استولى على صعدة وأجلى أبناء الإمام المطهر إلى استانبول وبنى جامع البكرية المشهور والقائم حتى الآن في صنعاء وبنى مساجد وخانات عديدة. ويذكرون أيضاً سنان باشا الكتخدا في سنة ١٠١٣ له خيرات عديدة كتبليط عقبة شهارة وبناء مساجد وقبب وبرك، ويذكرون أيضاً الحاج محمد باشا في سنة ١٠٢٥ الذي حفر بئر الباشا أعذب بئر في صنعاء وبنى سور بلدة يريم ورمم سوري صنعاء وزبيد وله خيرات أخرى.

ثم خلف هؤلاء ولاة مأفونون أساءوا التدبير وعكفوا على الجور وابتزاز الأموال وعاصمة السلطنة البعيدة في غفلة عن مراقبتهم ومحاسبتهم، لأن الانحطاط كان قد دب فيها منذ أوائل ذلك القرن. وانصرف السلاطين إلى الخمول واللهو فاستغل الأئمة هذه الغرر وصاروا يناجزون ولاة الدولة كلما آنسوا منهم ضعفاً إلى أن تمكن أحدهم وهو المؤيد محمد بن القاسم في سنة ١٠٤١ من إخراجهم من اليمن كله داخله وساحله. فانتهى بذلك دور الترك العثمانيين الأول الذي دام ١١٤ سنة أبقوا خلاله بعض المباني والمآثر الخيرية والابتزاز

= أبعد أكثر وزراء آل عثمان آثاراً ونفعاً لولا ما قيل أيضاً عن بطشه وجبروته.

(١) لأنه في بلاد الأناضول وفي فتن الخوارج على الدولة التي أطفأها كان يلقي بالعصاة على الدولة في الآبار فلقب بالبياري.

شأنهم في أكثر الأزمنة والأمكنة. ويذكر أنهم كانوا في ذلك الدور يقيمون في اليمن كله جيشاً لا يزيد عن عشرين ألفاً، ثلاثة أرباعه من أبناء الترك وربعه من أبناء عرب اليمن، وأن ولاية اليمن كانت إذ ذاك تجبي نحو نصف مليون دينار ذهبي، وأنها كانت بعد أن تنفق من هذا المبلغ على الموظفين والجيوش والحروب تبعث (١٥٠٠٠٠) دينار إلى عاصمة السلطنة[1].

دور استقلال اليمن (١٠٤١ - ١٠٨٩):

بعد أن زال حكم العثمانيين عن اليمن سنة ١٠٤١ ارتاح الأئمة الزيدية واستقلوا في جباله وتهائمه كلها استقلالاً تاماً، وظلوا سائدين نحو قرنين ونصف لا ينازعهم خلالها أي منازع غريب، سوى من كان يظهر في التهائم من أشراف أهلها الشافعية وأمرائهم، فقد كان هؤلاء كما قدمنا لا يرون الخضوع للزيدية ولا يرضون بضياع سيادتهم من أيديهم، فظلوا يناجزون الأئمة ويدافعونهم عن التهائم حتى تم لهم ما أرادوا في منتصف هذا الدور، وقد كان ينتظر من الأئمة المذكورين بعد أن استقلوا وسادوا وهدأ بالهم أن ينصرفوا إلى تنظيم شؤون اليمن وإعادة عمرانه بعد أن أنهكته الحروب والكوارث الماضية، وأن يعنوا بالمشاريع والأعمال الخيرية المفروض صدورها من أمثالهم ذوي العلم والفضل الغزيرين والسيطرة البالغة حد التقديس ولا سيما أموال الضرائب والصدقات المأخوذة من الرعية وقد كانت تجبى إليهم كلها دون هوادة وتكنز في خزائن صنعاء. لكن شيئاً من ذلك لم يحصل، بل اكتفى الأئمة المذكورون بإدارة بلادهم ومعاملة

(١) تاريخ اليمن وصنعاء، أحمد باشا ج ١ ص ٢٥٧ طبع الآستانة عام ١٢٩١.

رعيتهم على مناهج بالية. وأشد ما كان يهمهم هو جباية أموال الصدقات والضرائب المذكورة وكنزها وإنفاق قسم منها في مدافعة وثبات الطامعين بنوال الإمامة من أقاربهم أو إخماد ثورات القبائل التي كانت ولا سيما في أواخر هذا الدور تكثر بحكم سوء الإدارة أو المجاعات على أن العثمانيين لم ينسوا اليمن طوال ذلك الدور بل ظلوا يتحينون الفرص لاسترداده باعتباره دعامة الجزيرة العربية وسور الحجاز المتين، وأنه بدون الحجاز ووراءه اليمن لا تستقيم لهم دعوى الخلافة الإسلامية لكن اضطراب شؤونهم الداخلية وانشغالهم بالحروب والفتن حالا دون ذلك إلى حين.

وقد برز من هؤلاء الأئمة في الحروب والغارات خلال القرن العاشر المتوكل يحيى شرف الدين الذي دامت إمامته ٤٢ سنة (٩٢٣ ـ ٩٦٥) فقد قاتل هذا الإمام ملوك بني طاهر وأمراء الشراكسة وباشوات الترك العثمانيين ثم خلفه ابنه المطهر، وهذا دامت إمامته ١٥ سنة (٩٦٥ ـ ٩٨٠) كان اليد اليمنى لأبيه من قبل، وقد قاتل عامر عبد الوهاب وعامر داود وكانا آخر ملوك بني طاهر كما قاتل الترك العثمانيين في معارك عظيمة استمرت أعواماً طويلة ويشبهه في مقاتلة الترك المنصور القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ إلى أن خرج الترك في زمن خلفه المؤيد محمد بن القاسم سنة ١٠٤١، فخلا الجو في اليمن بعدهم للأئمة وتفردوا في حكم الجبال والتهائم كلها حتى عدن وحضرموت وذلك خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر وكل الثاني عشر وأكثر الثالث عشر (١٠٤١ ـ ١٢٨٩).

ولم يخل أخد هؤلاء خلال المدة الأخيرة المذكورة أيضاً من معارض أو معارضين من أخوانه أو أبناء أعمامه، وكل منهم يحاول

التفرد بالإمامة، فيقوم في أحد أنحاء الجبال ويدعو لنفسه ويهيج الفتن والكوارث الدامية الهدامة التي تقدم وصفها، وهي من أجل أسباب زوال سعادة اليمن القديمة، ولم ينبغ في هذه المدة منهم سوى المتوكل إسماعيل المتوفى سنة ١٠٧٩ ظل إماماً ٣٣ سنة واستولى بعد معارك شديدة على لحج وعدن وحضرموت إلا أن قبائل هذه البلاد وأمراءها ظلوا يناجزون الأئمة الذين خلفوا المتوكل اسماعيل حتى تم لهم الخلاص والاستقلال عنهم حوالى سنة ١١٤٥ ونبغ منهم أيضاً المهدي العباسي المتوفى سنة ١١٨٩ اشتهر بفضله وببناء المساجد والبرك وباستقرار الأمن نوعاً ما في عهده، وهذا هو الإمام الذي زاره السائح الدانمركي نيوهر سنة ١١٧٦ ووصف كيفية دخوله عليه ودرج في رحلته صورة مجلس الإمام المذكور وظل حال الأئمة على شيء من القوة إلى أن ضعف في أوائل القرن الثالث عشر وكثرت الفتن في ديارهم وعجزوا عن إطفائها واشتد الاختلال والاعتلال في عهد المنصور علي بن العباس والمهدي عبدالله ابن أحمد ومن أتى بعدهما، وثارت القبائل سنة ١٢١٦ وعمت الفوضى وحوصرت صنعاء محاصرة شديدة سنة ١٢٢٣، وخرجت التهائم من يد الأئمة إلى يد الأشراف من أهلها وظلت في يدهم إلى أن أرسل خديوي مصر محمد علي باشا جيشاً في سنة ١٢٢٥ واستولى على عسير والحديدة ومخا وتعز ومخاليفها ثم تركها لهم سنة ١٢٥٦. وانحصر الأئمة في اليمن الأعلى فقط، والفتن قائمة والسبل خائفة، والشرائع عاطلة وحولهم قليل إلى أن اضطروا إلى استدعاء الترك العثمانيين سنة ١٢٦٥ أولاً ثم في سنة ١٢٨٩ ثانياً على ما سنذكره.

ظل اليمن مستقلاً في الدور الذي ذكرناه آنفاً (١٠٤١ -

١٢٨٩) استقلالاً حال دون أمنية العثمانيين بالقضاء عليه، لانشغالهم باضطرابات شؤونهم الداخلية وبإطفاء الفتن والثورات في ولاياتهم المترامية الأطراف فضلاً عن حروبهم المتوالية مع الروس والنمساويين وغيرهم إلى أن جاء محمد علي باشا رأس الأسرة الخديوية في مصر بعد أن استتب له الأمر ولحظ حالة اليمن ومكانته المذكورتين فحملته مطامحه البعيدة على انتهاز الفرصة فأرسل أحد قواده واسمه امين بك واستخلص اللحية والحديدة من يد أشراف التهائم في سنة ١٢٥١ وعززه بعد بآخر اسمه ابراهيم باشا اليكن فأتم هذا فتح التهائم وأنحاء تعز من اليمن الأسفل. ولكن عقيب مؤتمر لندن سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م) واضطرار محمد علي باشا إلى إخلاء بلاد الشام والحجاز التي كان قد استولى عليها رجعت الجيوش المصرية من اليمن فلم يكن في وسع الدولة العثمانية إذ ذاك أن ترسل جيشاً لاحتلال اليمن، فاكتفت بتسليم التهائم موقتاً إلى حسين بن علي أحد شرفاء بلدة أبو عريش وعقدت معه اتفاقاً، فظل هذا محتفظاً بما سلم إليه، يدافع إمام صنعاء المتوكل الذي قصده وحاربه ليستولي على ما بيده.

وفي سنة ١٢٦٥ أرسلت الدولة توفيق باشا القبرسي مع جيش نزل في الحديدة، ثم تقدم إلى صنعاء باستدعاء الإمام محمد بن يحيى وقد كان هذا الإمام ضعيفاً وقصر عن إخماد ثورة القبائل ضده، فاستنجد المعونة من الدولة، لكن أهل صنعاء وثبوا على جند توفيق باشا المذكور على حين غرة وقتلوا عدداً منهم وأرجعوا الباقين مثخنين بالجراح إلى الحديدة، وكانوا قد أسقطوا الإمام المذكور الذي استنجد بالدولة وأهانوه ثم قتلوه ونصبوا مكانه علي المهدي ثم جاء بعده من العثمانيين متصرفون عديدون إلى الحديدة وحدها وكانوا لا

يتجاوزونها إلا قليلاً، وكثيراً ما كان أمراء عسير من آل عايض الذين نبغوا في تلك الحقبة يهاجمون المتصرفين المذكورين ويزعجونهم.

ولما استفحلت شرور الأمير محمد بن عايض في عسير وتهامة وهاجم الحديدة سنة ١٢٨٧، ساقت الدولة عليه جيشاً عرمرماً بقيادة المشير رديف باشا ففتح عسير وقتل ابن عايض وقضى على إمارته، وكانت صنعاء إذ ذاك تموج بالفتن من عجز الأئمة وعصيان القبائل وانقطاع السبل، فاستنجد الأئمة والسادة بالدولة بواسطة شريف مكة، وكان هذا ثاني استنجاد، فأمرت الدولة الغازي أحمد مختار باشا الذي خلف رديف باشا في قيادة جيش عسير أن يذهب إلى صنعاء ويقر الأمن ويملكها باسم الدولة ويبسط سلطانها على اليمن كله، فجاءها في سنة ١٢٨٩ وأطفأ فتن قبائلها بعد معارك عديدة أجلها ما قاساه في حصار حصن كوكبان وأخضع اليمن جباله وتهائمه - ما عدا أنحاء صعدة الشمالية ومأرب الشرقية - وأسس (ولاية اليمن) من ذلك الحين وقضى على نفوذ الأئمة الذين كانوا يظنون بأن الدولة بعد أن تنجدهم تعود أدراجها وتترك لهم البلاد، فأوى هؤلاء بعد حين إلى زواياهم في صنعاء أو إلى معاقلهم في القسم الشمالي من الجبال، كصعدة وشهارة وقفلة العذر، وقنعوا بالسلطة الروحية واحتجاز أموال الصدقات من أتباعهم الزيدية ولبثوا يتحينون الفرص للانتفاض وإسترداد ما فاتهم من الملك الذي أعطوه فلم يحسنوا سياسته.

الدولة العثمانية في دورها الثاني (١٢٨٩ - ١٣٣٧):

بعد أن فتح الغازي أحمد مختار باشا بلاد اليمن وأسس ولايتها

كما قدمنا بدأت الدولة تهتم في شؤون هذه الولاية ما ساعدتها أحوالها المضطربة إذ ذاك وبعد المشقة وكان ذلك في أواخر عهد السلطان عبدالعزيز المشهور بهوجه وتبذيره. ولكن الدولة لم تلبث أن رجعت إلى عادتها في الإهمال بحكم ازدياد الاضطراب في عاصمة السلطنة وخروج أمم البلقان إذ ذاك عليها واضطرارها إلى مواقعتهم وإخماد ثوراتهم وزاد هذا الإهمال بعد بسبب نشوب الحرب الروسية سنة ١٢٩٤ وانكسار جيوش الدولة فيها وانصرافها عقبها إلى رتق فتوقها، ودخل عهد السلطان عبدالحميد الطافح بسوء السياسة والإدارة والتجسس،واليمن النكد الحظ أكثر ما كان يجيئه من الولاة والموظفين، الطالحون والمأفونون وبعضهم من المغضوب عليهم والمطلوب إقصاؤهم فكان هؤلاء يجعلون دأبهم الجور والعسف وابتزاز الأموال للرجوع بأكبر غنيمة إلى بلدانهم، وإذا ما جاء ولاة صالحون يكادون يشرعون بالإصلاح وتبدأ أعمالهم بإتيان الثمرات حتى تستدعيهم الدولة إلى أماكن ووظائف أخرى. فلا تدعهم ينهون ما شرعوا به من المنشآت النافعة. يعد من هؤلاء الذين كانوا قليلين ـ للأسف ـ المشير أحمد أيوب باشا (سنة ١٢٩٠)بنى هذا في صنعاء عدة مباني أميرية، أجلها المستشفى العسكري الكبير الذي اتخذه الإمام يحيى مسكناً له وسماه (دار السعادة) ونذكر الفريق إسماعيل حقي باشا (سنة ١٢٩٦) فتح عدة مدارس وجند عدة أفواج من متطوعة أهل اليمن على النحو الذي عمله العثمانيون في دورهم الأول، وقد اتقن هؤلاء المتطوعة الخدمة وأبلوا أحسن بلاء في إطفاء فتن القبائل من أبناء جلدتهم، لكن الإدارة الحميدية الهوجاء استوحشت من هذا الجند العربي على أثر تقارير بعض الجواسيس فأمرت بحله، وبذلك قضت على هذا المشروع الذي كان نافعاً كل النفع لها ولأهل اليمن معاً ولم

تعتبر وقتئذٍ بالدول الأوروبية التي تجند من أبناء مستعمراتها وتقاتل بهم وتفتح مستعمرات أخرى بسواعدهم فتوفر من دماء ابنائها الأصليين ونفقاتهم الشيء الكثير. ونذكر الفريق عثمان باشا المشهور بورعه وعدله (سنة ١٣٠٦) والمشير أحمد فيضي باشا الذي كان قائداً مغواراً أنقد صنعاء من الحصار مرتين (في سنة ١٣٠٨ وفي سنة ١٣٢٢) على أنه كان عسوفاً أيضاً. وحسين حلمي باشا الصدر المحنك المشهور بعدله وحكمته (سنة ١٣١٥) فتح المدارس الصناعية والإعدادية ودور المعلمين في صنعاء وتعز وقضى على الظلم والرشوة وشرع بإصلاح أمور اليمن إصلاحاً حسناً، لولا إعراض عاصمة السلطنة وإهمالها تلبية مطاليبه، ونذكر حسن تحسين باشا (سنة ١٣٢٦) المشهور برزانته وحسن إدارته. ونعد من المشهورين بعسفهم وجورهم **مصطفى عاصم باشا (سنة ١٢٩٣) وعثمان باشا (سنة ١٣٠٥ والمشير عبدالله باشا (سنة ١٣١٨).**

أما الأئمة الزيدية فبعد أن ذهبت ريحهم عقيب دخول الدولة وسدت في وجوههم أسباب العيش والمقام في صنعاء انتقلوا منها إلى معاقلهم في شمالي اليمن فقطن الإمام المتوكل محسن بن أحمد الشهاري المتوفى (سنة ١٢٩٥) في حاشد والإمام الهادي شرف الدين محمد المتوفى سنة ١٣٠٧ في هجرة صعدة والإمام المنصور محمد حميد الدين المتوفى سنة ١٣٢٢ في قفلة العذر، ولبثوا كل منهم في زمنه يبتهلون الغرر من ضعف الدولة وفوضى أعمالها وعسف ولاتها وجور موظفيها فيعلنون الوثوب عليها الفترة بعد الفترة ويستنفرون القبائل بمختلف العهود والوعود ويشنون بهم الغارات على مراكز الجند. وقوافلهم ويحاصرون صنعاء وغيرها من المدن كلما تمكنوا، وهؤلاء القبليون هم سكان قرى اليمن وأرباب زرعه وضرعه أناس ما برحوا

على الفطرة وبعضهم على الهمجية، وتراهم حتى الآن حفاة ونصف عراة اعتادوا أن يتبعوا كل ناعق وداع، لا سيما إذا كانوا موتورين من الظلم وابتزاز الأموال وهو ما كان يقع في الغالب. وقد صار بعد (سنة ١٣٠٠) يردهم السلاح الحديث بكثرة يهربه التجار الأجانب من سواحل البحر الأحمر المهملة دون مراقبة.

أما الدولة ذات الخبط والارتباك فكانت ترسل الوالي تلو الوالي ولمدة قصيرة وأكثرهم ممن نوهنا بطلاحهم وجورهم وتزجي الجيش وراء الجيش قمعاً للفتن النائبة، وهي لو أنها عوضاً عن الضحايا والجهود العظيمة التي بذلتها وخسرت معظمها وقتئذٍ، اهتمت للفتن قبل التهاب شرورها وأبقت الولاة والقواد الصالحين الذين ذكرناهم وأصغت إلى لوائحهم ونصائحهم وأطلقت أيديهم في إقامة العدل وحسن السياسة والإدارة بما يتناسب مع حاجة بلاد اليمن وأهله وأمزجتهم لما وجد القائمون عليها من الأئمة حججاً للقيام وبواعث للدعوة والاستنفار. ولما سالت تلك الدماء الزكية لمئات الألوف من المسلمين أبناء ترك الأناضول وعرب الشام من جهة وأبناء عرب اليمن من جهة أخرى ولما عم الدمار والبؤس اللذان لا تزال آثارهما المحزنة ماثلة في كل أنحاء اليمن على ما رأيت.

ولا تتسع هذه العجالة لتعداد ما حدث في هذا الدور من المعارك الحربية والكوارث الفجيعة، فقد فصلها بعض القواد العثمانيين ممن حضروها في مؤلفات خاصة، عندنا منها كتب أحمد راشد باشا وعاطف باشا وثروت باشا، وقد كان يفنى من الفريقين في تلك المعارك المشؤومة ويخرب من البلدان الأخرى والقرى ويهلك من الحرث والنسل ما لا يعد ولا يحصى، وأكثر الضحايا كانت تقع في

جنود الدولة الذين كانت تسوقهم في غير رفق من أنحاء الأناضول والشام. وأكثر ما كان يؤدي لهلاك أولئك الجنود هو ما كانوا يقاسونه خلال سوقهم في اجتياز مئات الأميال في البر مشياً على الأقدام وفي تكديسهم في بواخر البحر ونقلهم كالأنعام، حتى إذا وصلوا إلى اليمن بعد لأي وصاروا يقطعون قفاره وجباله الشاهقة يقابلهم تقلب هوائه الحار في تهامة والبارد في الجبال واختلافه عما في جو بلادهم، ثم الأمراض المتنوعة التي كانت تصيبهم من فقدان التطبيب والمداواة أو قلتهما، ثم نقص الكساء والغذاء ورداءة المأوى والانقطاع عن الأهل خمسة أو ستة أعوام لمن يتاح له البقاء والرجوع بعد ذلك العناء.

وكان المبرز بين الأئمة الذين ذكرناهم أخيراً في مضمار الوثوب على الدولة واستنفار القبائل وتدوير رحى المعارك ومحاصرة صنعاء وغيرها من المدن هو المنصور محمد حميد الدين المتوفى سنة ١٣٢٢، وابنه المتوكل يحيى الذي تقلد الإمامة عقيب وفاة أبيه. وكان أكثر حظاً وتوفيقاً منه ومن أسلافه كلهم. وقد أثار على العثمانيين حروباً شديدة وثورات عظيمة وحاصر صنعاء محاصرة هائلة سنة ١٣٢٢ أطعم أهلها والجنود الذين كانوا محصورين فيها (النار والفار) كما قال هو. وحدثت وقتئذٍ مجاعات فتاكة أودت بالألوف من اليمانيين أنفسهم فوق ما نالهم من الحروب والكوارث المختلفة، وقد ذكر الواسعي اليماني في كتابه تاريخ اليمن (ص ١٩٧ ـ ٢٠٣) وصف هذه المحاصرات والمجاعات وما خلفته وقتئذٍ في صنعاء وغيرها من الآثار المحزنة والدمار والبوار.

ودام الحال تارة بالسكون وتارة بالثورات إلى أن دخل عهد السلطان محمد رشاد عقيب إعلان الدستور العثماني (سنة ١٣٢٦) وشرعت الدولة بلم شعثها وإصلاح بلادها، لكن اليمن لم يذق طعم

هذا العهد كغيره، فقد ظل الإمام يحيى يغادي الدولة ويراوحها في ما يثيره من القلاقل والمحن، وحاصر صنعاء مرة ثانية في سنة ١٣٢٨ حتى أيقنت الدولة بعجزها عن دفع طائلته، فاعتمدت سنة ١٣٢٨ أحد قوادها المحنكين المشير أحمد عزت باشا، فجاء بجيش كامل الأهبة وفك حصار صنعاء ثم عقد مع الإمام معاهدة صلح اعترفت الدولة بإمامته على الزيدية وبسلطته على الأحكام الشرعية والأوقاف الخاصة بهم في منطقة الجبال وخصصت له راتباً مناسباً، وبهذا هدأت الحالة من بعد ذلك التاريخ إلا ما كان يحدث بين القبائل النزاعة للاقتتال والاختلاف وبين الإمام وأحد أقاربه المسمى بالضحياني المعارض له بالإمامة، وما نجم من فتنة الإدريسي في عسير الذي لاذ وقتئذٍ بالطليان وحارب الدولة وحاصر بلدة أبها وغيرها. فاستعانت الدولة على قتاله بالشريف حسين بن علي أمير مكة في ذلك الحين وملك الحجاز بعده.

ولما نشبت الحرب العامة سنة ١٣٣٣ ظل الإمام يحيى حافظاً صلاته مع موظفي الدولة وقوادها في اليمن الذين انقطع عنهم الوارد والمدد من عاصمة السلطنة، وأرسل هؤلاء وقتئذٍ بإيعاز من العاصمة قسماً من جيشهم بقيادة علي سعيد باشا لمقاتلة الانكليز في عدن وإزعاجهم، وانضم إلى هذا القائد مقطوعة من شافعية اليمن الأسفل ومن الصوماليين جالية عدن، فاستولى على بلدة لحج ونهبها، وكان سلطانها وسكانها حذروا العاقبة فظلوا على ولاء الانكليز فمسهم الضر أكثر مما مس عدن ومن كان فيها.

ولما وضعت الحرب العامة أوزارها في سنة ١٣٣٧ إنجلى العثمانيون فاستلم الإمام يحيى اليمن الأعلى كله وبسط سلطته الزمنية

عليه ثم مد يده إلى اليمن الأسفل فحاول سكانه الشافعية المقاومة والتفرد، ولكن لم تتحد كلمتهم فأخضعهم الإمام كما أخضع بعد القبائل العاتية في الجوف شرقي اليمن وقبائل حاشد وبكيل والزرانيق، وكان الانكليز في سنة ١٣٣٧ قد استصفوا الحديدة ميناء اليمن واحتلوها ثم سلموها إلى الأدارسة. فبقي هؤلاء إلى أن استرجعها الإمام يحيى منهم في سنة ١٣٤٣ بعد حروب يسيرة، فاستتب له الأمر في كل اليمن ساحله وداخله وصار ملكاً مستقلا فيه كل الاستقلال وشرع يديره على طراز أسلافه في العصور الماضية.

وجملة القول إن عهد العثمانيين في اليمن لم يكن محموداً قط لأنهم أشبعوه في دوريهم الأول والثاني عسفاً وخسفاً وجعلوه بخطل آرائهم وفساد إدارتهم مقبرة لأبناء اليمن ولأبنائهم من جنود عرب الشام وترك الأناضول، فقد كان الهلكي من هؤلاء الجنود في كل سنة لا يقلون عن عشرة آلاف نسمة على ما قدره الثقات وقتئذٍ بسبب المعارك والمناوشات المستمرة والأمراض والنقائص التي قدمنا ذكرها فيكون عددهم خلال الثماني والأربعين سنة التي مكثوا فيها خلال دورهم الأخير (١٢٨٩ - ١٣٢٧) ٤٨٠٠٠٠ يقابلهم مثل ذلك من أهل اليمن الذين سقطوا صرعى الحروب والمجاعات والمحاصرات فالمجموع (٩٦٠٠٠٠) ويضاف إلى هذا مثله وهو ما هلك في دورهم الأول الذي امتد ١٢٠ سنة (٩٢٧ - ١٠٤١) فالمجموع نحو مليوني جثة من الفريقين قد دفنها العثمانيون أو سببوا دفنها، وخرجوا عقب الحروب العامة كما دخلوا لم يخلفوا وراءهم إلا ذكريات مريرة لم يخفف وطأتها إلا تلك الأسوار والمساجد والمدارس والمستشفيات والثكنات والطرقات التي تركها الصالحون منهم وبعض الخضروات والأشجار

المثمرة وغير المثمرة التي أدخلوها.

قلت في مقال سابق لي في هذه المجلة (عدد حزيران سنة ١٩٦٣) ولليمن لدينا نحن السوريين في العهد العثماني ذكريات مؤلمة وانطباعات رهيبة يعرفها الشيوخ عندنا الذين أدركوا أوائل قرننا الحاضر وما قبله. فقد كانت بلاد اليمن توصف بأنها مقبرة الجيش العثماني في ذلك الحين (١٨٧٢ - ١٩١٨) م بل كأن يقال في اليمن (الداخل اليه مفقود والخارج منه مولود) لأن هذا الجيش الذي كان يساق كرهاً إلى اليمن إن كان نصفه تركياً من أبناء الأناضول والبلقان فنصفه الثاني كان عربياً من أبناء بلاد الشام كلها (سورية ولبنان وفلسطين) فقد كانت تؤخذ من بلادنا جموع الأفراد الجديدة (المجندون) أفواجاً أفواجاً وعساكر الرديف كتائب وراء كتائب. كانوا يساقون كالأنعام إما بحراً مكدسين بعضهم فوق بعض في بواخر بالية لا تصلح إلا لنقل البهائم دون إعاشة أو رعاية كافيتين، أو يساقون مشياً على الأقدام في صحراء سيناء إلى ميناء العقبة في البواخر التي وصفناها. وإذا وصل هؤلاء بعد جوع وظمأ وسيقوا مشياً على الأقدام أيضاً من الحديدة إلى صنعاء وما حولها وخدموا أربع أو خمس سنوات ما كان يرجع منهم إلى مسقط رأسه سوى النصف أو الثلث. وندر من هؤلاء الراجعين من لم يكن عليلاً أو مشوهاً. كل ذلك من جراء الحروب والمعارك التي لم تنقطع بين الدولة وأهل اليمن.

ومن جراء الأمراض وتبدل المناخ بين جو تهامة وبرد الجبال ونقص الرعاية والعناية وغيرها من الأسباب التي كانت في العهد العثماني الاستبدادي (عهد السلطان عبدالحميد) تفتك بالجنود الذاهبين، فما من بلدة أو قرية في بلادنا العربية التي عددناها إلا

وتذكر يمن تلك السنين الخوالي بالأسى العميق. لأن لها هناك عشرات من الشهداء أو المنقطعين أو المعلولين أو المشوهين الذين راحوا ضحية ذلك العهد المشؤوم. يقابلهم مثل ذلك العدد وأكثر من أبناء اليمن الذين كانوا يثورون ضد ظلم موظفي الدولة أو إجابة لدعوة الأئمة الذين كانوا يستنفرونهم للوثوب على الدولة ومناجزتها القتال والمعارك لكي يستردوا سلطانهم الروحي والزمني الذي سلبته منهم. وكثيراً من ضباطنا وقوادنا السوريين القدامى عملوا في اليمن أيام العهد العثماني وخاضوا معاركه وقاسوا شدائده. منهم من قتل ودفن هناك دون أن يعرف له أثر، ومنهم من رجع معلولاً أو هزيلاً فمات في بلدته ضحية اليمن، آخرهم المرحومان اللواء تحسين باشا الفير واللواء مصطفى وصفي السمان. أضف إلى هؤلاء العسكريين عدداً كبيراً من السوريين المدنيين رجال الإدارة أو القضاء الشرعي أو التعليم أو الطب أو الزراعة وغيرها ألذين يحول ضيق المجال عن تعدادهم.

وإذا أضفنا إلى ذلك عهد الأئمة منذ أحد عشر قرناً لم يكن فيه هؤلاء أكثر رأفة وأحسن إدارة وأحكم سياسة لبلادهم وقومهم من الملوك والولاة الغرباء الذين تعاودوا الحكم في اليمن، لم يخلفوا كما قدمنا أي أثر عمراني أو عمل اقتصادي أو اجتماعي جدير بالتخليد والحمد، رغم الوسائل والصلاحيات الروحية والمادية العظيمة التي كانوا يتمتعون بها ولا يبذلونها إلا في ما يدعم رهبتهم ويخدم نهمتهم، وهم إزاء ذلك كله لم يفطنوا قط لواجباتهم الأصلية نحو البلاد والعباد التي سلمت قيادتها إليهم لتنظيم الجيش وتسليحه ورفع مستواه وترقية المعارف وإنشاء المدارس العصرية وإرسال البعثات العلمية وبناء المستوصفات والمستشفيات وفتح الطرق وتعمير السدود وتنظيم الري

وإصلاح الزراعة وتوسيع الصناعة وتنشيط التجارة ووقاية الصحة العامة للإنسان والحيوان وما شابهها من أعمال الإنعاش والإنشاء، وهي أعمال قل من خلفاء المسلمين وملوكهم وأمرائهم من لم يأت بشيء منها في بقية الأقطار وفي مختلف الأزمان.

وإذا أضفنا إلى ذلك أيضاً عهود الدويلات التي قامت في اليمن قبل العثمانيين تنازع الأئمة على الحكم وينازع ملوكها وأمراؤها بعضهم بعضاً ويتناحرون، حاشا بعض أيام بني أيوب وبني الرسول الذين أبقوا مؤلفات ومآثر مذكورة، قلت، إذا أضفنا كل ذلك إلى بعضه حق لنا أن نسمي اليمن بالقطر النحس الجدير بالرثاء، وأن نعد تاريخه منذ أن ودعته السعادة على أثر زوال دولة الحميريين سلاسل مفرغة من الحروب والخطوب لا يدرى أين طرفاها، ويقع وزرها الأكبر على عاتق أولئك الأئمة. لهذا فإن الوثبة الجبارة أو العملية الجراحية التي قام بها البطل المقدام المشير عبدالله السلال لأجل إقصاء فلول الأئمة كانت لازمة وصائبة كل اللزوم والصواب، فرج بها كربة أهل اليمن وأزال غمتهم من الأئمة الذين لو بقوا لظلوا نكبة وأي نكبة على اليمن وأهله أبد الآبدين. ومن شب على شيء شاب عليه. أجل كانت هذه الوثبة من أعظم الأعمال الوطنية التي سوف يبقى ذكرها خالداً في تاريخ اليمن والعرب وأجداها بالحمد والثناء والدعاء بأن يوفق الله فاعلها البطل ويأخذ بيده حتى يطهر اليمن من أوزاره السابقة ويرجع سعادته الضائعة ويدفعه نحو السير الحسن في ركب الحضارة الحديثة التي كان اليمن في عهد الأئمة متخلفاً فيها أي تخلف، كي يصير اليمن مفخرة الأمة العربية ومحط آمالها إن شاء الله.

هـذا غيض من فيض مـا يمكن أن يكتب عن تـاريـخ اليمن القديم والحديث قصدت بنشره تعـريف هذا القـطر الشقيق وثورتـه التحررية إتماماً لخدمتي زراعته عام ١٩٣٦ . ولعلي أكتب ما يماثله عن جغرافيته لأن هذه أيضاً كانت مجهولة بإرادة العهـد البائـد. فهو قـد وضع وقتئذٍ اليمن في قمقم وجعله لا يعرف أحداً ولا يعـرفه أحـد. وإني أرجو أن يقرأ إخواننا اليمانيون ما أكتبه عن ماضيهم وحاضرهم ويرسلوا لي ملحوظاتهم عنه، أو يتخذوه توطئة لما هـو أكمل وأوسـع ليصدق القول بأن أهل مكة أدرى بشعابها.

القات

عدو اليمن الأكبر[1]

- ٤ -

لا مراء في أن اليمن في ما مضى من عهـود المعينيين والسبئيين والحميريين الذين سادوا وشادوا فيه قروناً عديدة، كان على قدر كبير من الحضـارة والعمران ورقي الـزراعة والتجـارة ورفه السكـان حتى سماه الرومان (العربية السعيدة) وشهد بذلك القرآن الكريم في سورة سبأ حينما قال (لقد كان لسبأ في مسكنهم جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) الخ الآية.

لكن اليمن بعـد تلك العهـود تـوالت عليـه المصـائب والمحن وكثرت فيه الحروب والفتن ولا سيما بعد أن ابتلي بالأئمة الذين هبطوا وبسطوا فيه سلطانهم.ولم يعملوا فيه شيئاً من الإصـلاح والإعمار ولم يفكروا إلا بتوطيد جبروتهم وملء خزائنهم بأموال الضرائب المتنوعة يكدسونها ولا ينفقـونها في سبيل الله والـوطن حتى أوصلوا اليمن إلى

(١) نشرت في مجلة المعرفة السوريـة العدد الأول السنـة الثانيـة في شهر آذار مـارس عام ١٩٦٣ م.

حالة يـرثى لها من الفقـر والجهل والمـرض والتخلف وحتى سمي في يومنا (العربية الشقية).

ومصائب اليمن ودواعي شقائه وتخلفه كثيرة، شاهدتها لما كنت في اليمن سنة ١٩٣٦ أخدم زراعته وأسعى لترقيتها. وسأقتصر في هذا المقال على ذكر أكبرها وأدهاها التي اسمها (القـات). فالقـات شجر خبيث ابتـلي اليمانيـون بمضغ أوراقـه المخدرة، كبيـرهم وصغيـرهم وغنيهم وفقيـرهم ورجالهم ونسـاءهم، على حـين أنـه مضر أضـراراً شتى. فقـد أدى استعمالـه لـديهم منـذ أربعـة قـرون إلى أن أضـاع صحتهم وأضعف همتهم وبعثر ثروتهم وأصبحـوا على تـوالي الأجيال صغار الأجسام هزال الأبدان صفر الوجـوه غائـري العيون ضعـاف النسل. لا دأب لأحدهم مهما عضه البؤس بنابه إلا أن يقتر على نفسه وعياله لينفق معظم ما يجنيه على شراء القات ومضغه كيما يخدر رأسه ويشرح صدره على النحو الذي يحصل للمبتلين بالأفيون والحشيش في الصين والهند وغيرهما. وهم لا يبغون عنه حولاً ولا يقبلون به نصحاً ولا جدلاً. بل يمدحونه ويتباهون به ويهجون من ينقده ويذمه بقصائد وأشعار لا يقرها العقل منها قولهم:

زبـرجـداً يقـطف الأخـوان أم قـاتـا
يسلو بـه العيش أحيـانـاً وأوقـاتـا
يـا عـاذلي في بلوغ القـات مت كمـداً
لا نتـرك القـات أحيـاءً وأمـواتـا

وجل ما للقات من نفع هو أنه يخـدر الفم والمعدة عـلى النحو الذي تفعله أوراق شجر الكوكا التي يصنع منها الكوكائـين. أي أنه

يبعث الجذل والنشوة والسهر، ويقال إنه مضاد للزحار والملاريا ويقي من النزلات الصدرية. لكن إثمه أكبر من نفعه، لأن أوراقه تحتوي على شبه قلوي خاص به يدعى (قاتين) وعلى شبه قلوي آخر هو (القهوئين) وعلى عنصر (التانن). فالقاتين يجفف الباطنة والقهوئين يطرد النوم وينبه الأعصاب والتانن يوجب العطش. هذا إلى أن القاتين يقلل شهية الطعام ويضعف الباه ويوجب الصداع والقبض وآلام الأمعاء الغليظة. والنشوة والاسترخاء اللذان يحدثهما يؤديان إلى فتور وكسل في البدن ينفذان إلى قرارة النفس فيجعلانها خاملة حائرة ومن خواص القات أيضاً أنه يؤثر في الغدد اللعابية ويزيد إفراز اللعاب ويجبر الماضغ على البصق بكثرة ومراراً عديدة كما يجبره عنصر التانن على شرب الماء بترادف وإستمرار. وقد يؤدي الابتلاء بالقات لا سيما بالصنف الأول منه الذي سنتحدث عنه إلى الجنون ناهيك عن مرض الباسور المتفشي في اليمن بكثرة. والنساء المبتليات بالقات يجنين على أنفسهم وأطفالهن. لأن الطفل أثناء الحمل والرضاعة يتغذى بخلاصة القات الذي تمضغه أمه. أضف إلى هذه الأضرار في الصحة أن المبتلي بالقات ينفق ما يجنيه لقاء قوت يومه ثمناً للقات الذي يباع بأثمان عالية. بينما زوجته وأطفاله يتضورون جوعاً أو يقتاتون بالشيء الغثيث.

ووطن القات الأصلي الحبشة في شرقي أفريقية. وقد انتقل من الحبشة إلى اليمن في القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري. أي أن اليمانيين ما كانوا يعرفونه قبل القرنين المذكورين. والبرهان على ذلك هذه العبارة التي عثرت عليها في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي (ج ٣ ص ٣٠٦) قال رحمه الله في بحث الحبشة (وعندهم ـ يعني أهل

الحبشة ـ شجر يسمى جات بجيم بين الجيم والشين ولا ثمر له، وإنما له قلوب ـ يعني أوراقاً ـ تشبه قلوب النارنج تؤكل فتزيد في الذكاء والفهم وتفرح. إلا أنها تقلل الطعام والنوم والجماع. وعنايتهم به عناية أهل الهند بالتنبل وإن كان بينهما مباينة. وأي نفع في ما فائدته تقليل الطعام والنوم والجماع اللائي هي لذائذ الدنيا. حتى أنه يحكى أنه وصف لبعض ملوك اليمن فقال: (لا يذهب متحصل ملكي إلا على هذه الثلاث فكيف أسعى لذهابها بأكل هذا؟)[1].

والقات ينمو في جبال اليمن ويجود في الأودية الرطبة الظليلة التي لا تتعرض لحرارة الشمس الشديدة إلا بضع ساعات في اليوم. وهو من الفصيلة العاتية المسماة (سلاسترينية) واسمه العلمي (قاتاأدوليس) وهو في المنظر يشبه الحور عندنا أي أنه ذو ساق قائم طوله بين المتر والخمسة أمتار. وحول الساق فروع وأغصان منتصبة وموازية للساق. وخشب ساقه وفروعه رمادي اللون كلون شجر الزيتون. وأوراقه بكبر أوراق شجر اليوسفي أو النارنج وهي قلبية الشكل وشديدة الاخضرار. ولا يكون للقات ثمر. ومحصوله أي أغصانه الغضة التي تقطف أوراقها يحصل طول السنة. ولا يستفاد من الشجرة إلا بعد غرسها بثلاث سنوات. وهو يتكاثر بفسائله التي تنمو حول أرومته أو بغرس عقله (جمع عقلة) المأخوذة من قص أغصانه.

وللقات أصناف مختلفة تختلف اسماؤها باختلاف الأماكن التي ترد منها. أشهرها القات التعزي الذي يحصل في جبل صبر حول

(١) قلت: اين هذا الملك يرى الآن ما بلغته حالة أهل بلاده باستعمال ما عافته نفسه. وقد كان مصيباً جداً في رأيه.

مدينة تعز ويشحن إلى عدن. والقات الريمي الذي يحصل في جبل ريمة ويشحن إلى الحديدة. وهذان الصنفان هما أجود القات وأغلاه ثمناً.

وللقات أيضاً ثلاثة أصناف تختلف بحسب الأتربة والأجواء التي ينمو فيها. فالصنف الأول شديد التخدير - يؤثر في دماغ الإنسان أكثر من حشيشة الكيف وقد يسلب العقل ويؤدي إلى الجنون. والصنف الثاني وسط في تخديره مهما مضغت أوراقه وعصر ماؤه يؤثر بقدر النبيذ المعتق أو العرق القوي. والصنف الثالث أقل تأثيراً من الصنف الثاني في بعث النشوة والانبساط، لولا أنه يحرم النوم ويجلب الأرق. وطبيعة القات حارة تدعو ماضغه إلى شرب الماء بكثرة وعلى التوالي. وهو يجعل الشفتين جافتين جفافاً شديداً. وإن سألتهم عن سبب استعمالهم القات وابتلائهم به أجابوا ماذا نعمل وليس لدينا سواه لقتل الوقت والترويح عن النفس إنه يفرج الهموم ويبدد الغموم ويبعث الانبساط والانشراح. والواقع أن بلاد اليمن محرومة من كل مقهى وناد وملعب ومنتزه عام، وليس فيها دار تمثيل أو موسيقى أو سينما. لأن كل هذه الأماكن والمباهج ممنوعة بأمر الحكام شديدي التزمت.

والقات يعد في يومنا هذا أجل المحاصيل الزراعية في اليمن وأوفرها ربحاً لزراعه وتجاره وأكثرها إيراداً لبيت مال الحكومة. لكن ربحه محصور في داخل اليمن لا في خارجها. لأنه لا يصدر إلى خارج اليمن ولا يستسيغ طعمه إلا اليمانيون فحسب. على أنه صار يصدر إلى عدن وصارت الطائرات تحمله فيصل غضاً طرياً في أسرع وقت، وهذا هو المطلوب في مذهب المبتلين به وإذا قل محصوله في اليمن جلبه تجار عدن من الحبشة بالطائرات أيضاً. لهذا فقد انتشرت زراعة

القات في اليمن انتشاراً هائلاً وزاحمت زراعة البن وغيرها مما هو صالح للتصدير إلى خارج اليمن وإلى إدخال العملة الصعبة. وأغصان القات المقطوفة تجمع وتعمل بشكل رزمة تشبه الخسة السمينة. وثمن الرزمة كما قدمنا غالٍ لا يقل عن ٥٠ ـ ٧٥ قرشاً سورياً. ومن هنا كان الفقراء المدقعون في مدن اليمن وقراه يعجزون أحياناً عن شرائه واستعماله فيبعدون عنه مكرهين والحسرة مالئة قلوبهم.

واستعمال القات يدعى في اليمن (تخزين) من كلمة الخزن. ولهذا التخزين أوقات وأماكن معينة يرتادها أكابر القوم وأغنياؤهم. أما الفقراء والعمال والباعة والصناع واسم هؤلاء هناك (عيال السوق) فيخزنون وهم سائرون في طريقهم أو قاعدون في حوانيتهم وراء بضاعتهم أو منهمكون في صناعتهم، لا تفوتهم لقمة منه. وتراهم وقد انتفخت أوداجهم بما وضعوه من ورق القات وجعلوه كالكرة التي أكبر من الجوزة وملأوا أفواههم بها يحركونها دوماً. أما الكبراء والأغنياء فلهم مكان مسقوف مغلق قد يكون خاصاً بواحد منهم اسمه في صنعاء (المفرج) وفي الحديدة (المبرز). وهو غرفة كبيرة مستطيلة تكون في أعلى طبقة من دورهم ذات الثلاث أو الأربع طبقات ولها نوافذ واسعة مشرفة من أعلى على مناظر بعيدة، يمدون فيها الطنافس والمفارش والمساند الجميلة، يتكئون عليها ويحتشدون. ويكون وسط المفرج ملآناً برزم القات وأمام كل من الجالسين نرجيلة طويلة ضخمة يسمونها (مداعة) لا يقل علوها عن المتر متقنة الصنع عليها رأس كبير فيه تنباك يدعونه الحومي مصدره من حضرموت، وهو قوي شديد الأثر. ولكل نرجيلة نبريج طويل وغليظ مغلف بقماش حريري رقيق

مزركش وطول النبريج لا يقل عن الأربعة أمتار. ويكون في وسط المفرج أيضاً منقل كبير عليه الأباريق النحاسية الملآنة بمنقوع قشر البن وفناجينه وإبريق فخاري فيه ماء يستعمله ماضغ القات لغرغرة فمه ومبصقة نحاسية يستعملها للبصاق ولطرح بقية أوراق القات التي ينتهي مصها ولا يبلعها بل يمص ماءها ثم يطرحها في المبصقة.

ومجالس التخزين تبدأ كل يوم من بعد الظهر إلى بعد العصر حيث يذهب كل امرىء إلى عمله. ثم يجددون المجلس من بعد العشاء إلى وقت متأخر من الليل. وبينما هم يخزنون يتحادثون ويتنادمون أو يتمازحون أو يغنون ويطربون. وهم إذ ذاك لا بد أن يغلقوا الأبواب والنوافذ لأن نشوة القات وبهجته لا تتم ما لم يكن جو المجلس حاراً محصوراً، ولهذا ترى هواء هذه المجالس حاراً وكثيفاً وفاسداً من جراء تصاعد دخان النراكيل وأنفاس الجالسين المزدحمين وروائح عرقهم الذي يكثر بسبب هذا الحر وكثرة شربهم الماء. فإذا دخل إنسان غريب غير معتاد على هذا المنظر ضاق صدره واكتأب وحاول الخروج والابتعاد. وإذا سألتهم عن سبب إغلاق النوافذ وتكثيف الهواء وإفساده أجابوا أن ذلك لخوفهم من البرد بحكم أن جبال اليمن باردة وأن البرد أساس كل علة. وهو جواب غير مقنع. ولما كانوا يقضون الساعات الطوال كل يوم في هذا الجو الفاسد منذ أجيال صارت أجسامهم هزيلة وصحتهم متأخرة على النحو الذي قدمنا ذكره.

هذا والقات يرد كل صباح محملاً على ظهور الجمال من أماكنه إلى المدن فيهرع تجاره قبيل الفجر إلى استقباله في خارج المدينة. ويتخاطفونه ويشتري كل منهم ما وسعه الجهد ويأتون به إلى السوق.

وهنا تجد الناس قد تهافتوا على شرائه كتهافت الجياع على شراء الخبز أيام الحروب أو المجاعات، يتزاحمون بالمناكب ريثما يفوز كل منهم برزمة أو عدة رزم، يهرول بها راجعاً وكأنه حاز سعادة الدارين.

وجملة القول إن أضرار القات باليمن وشعب اليمن جسيمة، تعصف بصحتهم وحيويتهم وتهدد نشاطهم وتضيع أوقاتهم، وفي اعتقادي أنهم ما داموا مبتلين بهذا القات ومواظبين على استعماله كل يوم لا خير لهم ولا مستقبل ولا مجال لبروزهم ومجاراتهم شعوب العالم. وإن مكافحة هذه الشجرة الخبيثة والسعي إلى استئصالها وحرقها وتحريم زراعتها والاستعاضة عنها بأشجار مثمرة اقتصادية صالحة للتصدير وجلب العملة الصعبة كالبن الذي هو أصلح ما يعيش لديهم ويجود، ثم البرتقال والليمون والزيتون والفستق والصنوبر المثمر ثم الأشجار الحراجية التي تعطيهم ما هو مفقود لديهم من خشب الصناعات وغير ذلك مما يثبت بعد التجارب المكررة أنه يعيش في أجواء اليمن وأتربته، كل هذا من أول واجبات الجمهورية اليمنية الفتية التي بدأنا نسمع بمشاريعها وإحداثاتها الطيبة، فلعلها فاعلة بما تمنيناه إن شاء الله

الفهرس

